

الرحمن الرحيم

في يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ تَشْرِينَ الثَّانِي ١٩٣٩، كَانَتْ قَافِلَةٌ مِنْ الْفُرْسَانِ
تَسَلُّقُ السَّفْحِ اللَّبْنَانِيِّ مِنْ جَبَلِ الشَّيْخِ، ثُمَّ تَضْرِبُ مَضَارِبَهَا فِي
الْقِمَّةِ الْعَالِيَةِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْهَا، وَالَّتِي كَانَتْ بَقَايَا ثُلُوجِ الشِّتَاءِ الْغَابِرِ
اسْتَقَرَّتْ فِي طِيَّاتِهَا وَمَلْفَاتِهَا، وَقَدْ صَعَبَ عَلَى أَشْعَةِ الشَّمْسِ الْإِشْرَاقُ
عَلَيْهَا وَتَدْوِيُّهَا.

وَكَانَ جَمِيلًا وَفَتِيًّا صَبُوحَ الْوَجْهِ، ذَاكَ الشَّابُّ الَّذِي كَانَ يَتَكَلَّمُ كَلَامَ السَّيِّدِ
بَيْنَ الْفُرْسَانِ، مِمَّا يَجْعَلُ الْمُلَاحِظَ يَعْرِفُ أَنَّهُ وَجْهُ الْقَافِلَةِ وَزَعِيمُهَا، وَلَا
شَكَّ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَغْرَبِ مُشَاهِدَةً هَذِهِ الْقَافِلَةِ تَرْتَكِزُ فَوْقَ الْجَبَلِ
فِي فَضْلِ كَانَ الْبَرْدُ فِيهِ قَارِصًا.

كَانَ وَلَا شَكَّ مِنَ الصَّعْبِ عَلَى الْغَرِيبِ مَعْرِفُهُ مَا جَاءَتْ تَفْعَلُ تِلْكَ
الْقَافِلَةُ هُنَاكَ، وَمَا جَاءَ يَفْعَلُ هَذَا السَّيِّدُ وَرِفَاقُهُ الْفُرْسَانُ الْأَشَاوِسُ
الْجَمِيلُونَ الَّذِينَ تَبَدُّوْا عَلَيْهِمْ دَلَائِلُ الْبَأْسِ وَالْقُوَّةِ، وَقَدْ ارْتَدَوْا أَلْبَسَةَ
الْحَرْبِ وَصَعِدُوا الْجَبَلَ بِارْتِيَاكِ وَحُبُورٍ يُوَافُونَ ذَاكَ الْمَوْعِدَ الَّذِي تَنَادَوْا
إِلَيْهِ فِي وُدْيَانِهِمْ وَقَرَاهُمْ بِجَبَلِ لُبْنَانَ؛ وَجَاؤُوا يَقْفُونَ عَلَى رَأْسِ ذَلِكَ
الْجَبَلِ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ بِحُبِّ وَشَغْفٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهِمْ يَقُولُ إِنَّهُمْ يَحْسَبُونَ
أَنْفُسَهُمْ أَسْيَادَهُ وَأَصْحَابَهُ.

فُرْسَانُ بُبْلَاءِ

كَانَ الرُّعَاةُ الَّذِينَ التَّقَوُّوا بِهِمْ فِي مَدَارِجِ الْجَبَلِ الْعَالِي عَلَى خَطِّ عِنْدَمَا تَهَرَّبُوا مِنْ طَرِيقِهِمْ وَظَنُّوهُمْ مِنَ الْعِصَابَاتِ النَّهَابَةِ، وَقَدْ كَانَ يَكْثُرُ أَمْثَالُهَا بِذَلِكَ الْوَقْتِ فِي مَجَاهِلِ وَمَفَاوِزِ تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ.

كَانَ الشَّيْءُ بِالْعَكْسِ، فَإِنَّمَا جَمِيعُ مَلَامِحِ وَكِبْرِيَاءِ وَظُرَافَةِ حَرَكَاتِ وَتَعَابِيرِ وَلَطَافَةِ أَوْلِيكَ الْفُرْسَانِ، دَلَّتْ عَلَى أَنَّهُمْ مِنْ طَبَقَةٍ خَاصَّةٍ عَالِيَةٍ، فَهُمْ مُحَارِبُونَ وَمَقَاتِلُونَ وَلَكِنْ لَيْسَ بَيْنَهُمْ قُطَاعُ طُرُقٍ وَأَهْلُ شَقَاوَةٍ.

مَوْعِدُ الْأَمْرَاءِ

كَانَ جَمِيعُهُمْ أَحْفَادُ أَمْرَائِنَا الَّذِينَ حَكَمُوا وَمَلَكُوا جَبَلَ لُبْنَانَ مِائَاتِ السِّنِينَ، وَكَانَتْ دَوْلَتُهُمْ قَدْ دَالَتْ مُنْذُ مِئَةِ سَنَةٍ تَقْرِيْبًا، وَذَلِكَ عِنْدَمَا قَامَتِ الْمَذَابِجُ الطَّائِفِيَّةُ فِي بِلَادِهِمْ، وَقَامَتِ الدُّوَلُ الْعُظْمَى السَّبْعُ يَوْمَئِذٍ تَضَعُ لِلْبُنَانِ بُرُوتُوكُولَهُ الَّذِي أَنَّهُى مُلْكَ الْأَمْرَاءِ الشُّهَابِيِّينَ وَجَعَلَ لَجَبَلِ لُبْنَانَ حُكَاْمًا مُتَصَرِّفِينَ أَغْرَابًا تُوَافِقُ الدُّوَلُ السَّبْعُ عَلَى انْتِقَائِهِمْ وَتَعْيِينِهِمْ!

جَاءَ هَؤُلَاءِ الْأَمْرَاءِ فِي بَدَايَةِ الْحَرْبِ الْجَدِيدَةِ الْكُبْرَى الثَّانِيَةِ بَعْدَ مِئَةِ سَنَةٍ مِنْ شِقَاقٍ وَتَفْرِقَةٍ وَتِيهِ، وَحَتَّى مِنْ فَقْرٍ وَانْشِقَاقٍ، جَاؤُوا يَتَعَاوَنُونَ وَيَتَضَامَنُونَ وَيَتَكَاتَفُونَ هُنَاكَ، حَيْثُ أَجْدَادُهُمُ الْمَالِكُونَ كَانُوا يُسَيِّطِرُونَ عَلَى جَمِيعِ الطُّرُقِ وَيَقْفُونَ فِي أَعْلَى الْجَبَلِ الرَّاسِخِ يُدَافِعُونَ عَنِ جَبَلِ لُبْنَانَ وَعَرْشِهِمْ فِيهِ.

انْتَقَى الْأَمْرَاءُ الْفُرْسَانُ جَبَلَ حَرْمُونَ، يَرْحَفُونَ مِنْهُ لِاسْتِعَادَةِ مَا يَطْلُبُونَهُ

مِنْ حُقُوقِهِمِ الصَّائِعَةِ وَمَا سَلَبْتَهُ الْإَيَّامُ وَالْبُرُوتُوكُولُ اللَّبْنَانِيُّ مِنْ مَكَانَةٍ كَانَتْ لَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ قَدْ بَقِيَ مِنْهَا شَيْءٌ، إِذْ إِنَّ الْبُرُوتُوكُولَ اللَّبْنَانِيَّ أَوْلًا، ثُمَّ الْفَرَنْسِيِّينَ الَّذِينَ جَاؤُوا بَعْدَهُ حُكَّامًا مُنْتَدِبِينَ تَنَاسَوْا وَأَهْمَلُوا هَؤُلَاءِ الْأُمَرَاءَ بِطَرِيقَةٍ مَقْصُودَةٍ مَعْرُوفَةٍ يُسَاعِدُهُمْ انْشِقَاقُ وَتَفَرُّقُ وَتَبَاعُدُ الْأُمَرَاءِ عَنِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَقَدْ حَرَمَتْهُمْ السُّلْطَاتُ مِنْ مَرَكَزِ كَانَتْ مُعْظَمُهُمْ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَبْرَزَ فِيهَا؛ وَكَانَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْهُمْ امْتَهَنَ مِهْنًا صَغِيرَةً بَسِيطَةً وَهُوَ فَخُورٌ أَنَّهُ يَكْسِبُ عَيْشَهُ مِنْ عَرَقِ جَبِينِهِ؛ فَلَا يَتَدَنَّى وَلَا يَتَدَلَّلُ وَيَحْفَظُ كِرَامَتَهُ إِلَى النِّهَائَةِ دُونَ صَغَائِرَ وَلَا عَارَ مِنْ أَعَالِي حَرَمُونَ، تَنَادَى الشُّهَابِيُّونَ لِلْمَوْعِدِ فِي ذَلِكَ الشَّهْرِ مِنْ أَوَّلِ السَّنَةِ، سَنَةِ الْحَرْبِ الْجَدِيدَةِ، وَلَبَّى الْفِتْيَانُ مِنْهُمْ بِأَجْمَعِهِمُ النَّدَاءَ، وَمَا تَخَلَّفَ عَنِ الْمَوْعِدِ غَيْرُ الَّذِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْوُصُولَ إِلَيْهِ.

لَيْسَ هُنَاكَ عَرْشٌ

وَلَمَّا جَاؤُوا إِلَى الْاجْتِمَاعِ يَقَرَّرُونَ الْمَطْلَبَةَ بِعَرْشِهِمْ وَالْعَوْدَةَ إِلَى حَقِّهِمْ فِيهِ، فَقَدْ ظَلَّتْ هَذِهِ الْفِكْرَةُ بَعِيدَةً عَنْهُمْ حَتَّى النِّهَائَةِ، جَاؤُوا عَنْ يَقِظَةٍ جَدِيدَةٍ. جَاؤُوا يَثُورُونَ عَلَى تَجَاهُلِ السُّلْطَاتِ مِنْذُ مِئَةِ سَنَةٍ حَتَّى ذَلِكَ الْيَوْمِ، لَوْجُودِهِمْ وَمَا لَهُمْ مِنْ حُقُوقٍ وَمَكَانَةٍ، وَمَا أَوْصَلَتْهُمْ إِلَيْهِ السُّلْطَاتُ مِنْ ضَعْفٍ لَمْ يَعْرِفْهُ أُمَرَاءُ مَالِكُونَ قَبْلَهُمْ، فِي كُلِّ الْبِلَادِ الَّتِي تَدَاعَتْ فِيهَا عُرُوشُهُمْ وَضَاعَتْ حُقُوقُهُمْ. لَقَدْ كَانَ أُمَرَاؤُنَا، وَلَا شَكَّ، يَوْمًا مَا مَسْؤُولِينَ عَنِ الْحَالَةِ الْمُؤَلِّمَةِ الَّتِي وَصَلُوا إِلَيْهَا، وَذَلِكَ لِانْشِقَاقِهِمْ عَنِ بَعْضِهِمْ، وَفِي تَفْتِيشِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى رِزْقِهِ بَعِيدًا عَنِ الْآخِرِ، وَفِي تَجَاهُلِهِ أَصْلَهُ وَقَضَلَهُ تَجَاهُلًا ضَائِعًا مُرْتَجِفًا.

الْيَقْظَةُ الَّتِي جَاءَتْ بِوَقْتِهَا

إِنَّمَا فَجَاءَهُ - وَلَا شَكَّ أَنَّ الْحَرْبَ الَّتِي كَانَتْ قَدْ بَدَأَتْ أَوْحَتْ لَهُمْ بِمَا فَعَلُوا - رَأَيْنَا أَوْلِيَّكَ الْأُمْرَاءَ الْفِتْيَانَ الْأَشَاوِسَ يَتَنَادُونَ وَيَتَوَاعَدُونَ وَيَلْبُونَ الطَّلَبَ وَيَلْتَقُونَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي اجْتَمَعَ فِيهِ أَجْدَادُهُمْ مِنْذُ ثَلَاثِمِئَةِ عَامٍ عِنْدَمَا زَحَفُوا عَلَى جَبَلِ لُبْنَانَ يَسُودُونَ عَلَيْهِ وَيُقِيمُونَ عُرُوشَهُمْ فِيهِ.

جَاءَ أَوْلِيَّكَ الْفُرْسَانُ إِلَى رَأْسِ الْجَبَلِ يَتَعَاهَدُونَ عَلَى الْعَمَلِ لِإثْبَاتِ وُجُودِهِمْ عَنْ جَدِيدٍ، وَلِلْخُرُوجِ عَنِ الْإِهْمَالِ الْكَامِلِ الَّذِي وَصَلُوا إِلَيْهِ، وَلِلْقَوْلِ لِلسُّلْطَاتِ إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ لَهُمْ مَكَانَةً تَحْتَ الشَّمْسِ تَتَّفِقُ مَعَ مَا لِأَجْدَادِهِمْ مِنْ فَضْلٍ وَخِدْمَاتٍ عَظِيمَةٍ لِلْبُنَانِ! وَوَصَلَتْ حَالًا أَخْبَارُ مُؤَامِرَاتِهِمْ إِلَى السُّلْطَاتِ.

قُلْنَا مُؤَامِرَةً لِأَنَّهُ بِالْحَقِيقَةِ كَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَكَانَ خَبْرُ اجْتِمَاعِهِمْ قَدْ زَادَ مِنْ عَدَدِهِمْ، فَالْأُمْرَاءُ الَّذِينَ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا فِي الْبِدَايَةِ عَنْ ذَلِكَ الْاجْتِمَاعِ جَاؤُوا إِلَيْهِ شَيْئًا وَشَبَابًا، مِمَّا جَعَلَ السُّلْطَاتِ الْفَرَنْسِيَّةَ تَهْتَمُّ لِلْأَمْرِ اهْتِمَامًا كَبِيرًا، وَتَأْخُذُ فِي الْمُفَاوَضَةِ مَعَهُمْ.

وَأَنَا، كَاتِبَ هَذِهِ السُّطُورِ، كُنْتُ قَدْ دُعِيتُ أَيْضًا - مِنْ جَانِبِ الْفَرَنْسِيِّينَ - لِتَسْلُقِ جَبَلِ سُلَيْمَانَ الْحَكِيمِ أَوْ جَبَلِ حَرْمُونَ كَمَا هُوَ اسْمُهُ أَيْضًا، وَاعْبَ الْفَرَنْسِيُّونَ دَوْرًا مَرْمُوقًا فِي هَذِهِ الْمُفَاوَضَاتِ الَّتِي قَامَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْفَرَنْسِيِّينَ. انْتَهَى الْأَمْرُ بِأَنَّ وَاْفَقَ الْفَرَنْسِيِّونَ عَلَى الْكَثِيرِ مِنْ مَطَالِبِ الْأُمْرَاءِ، وَخُصُوصًا عَلَى عَدَمِ تَجَاهُلِ وُجُودِهِمْ وَحُقُوقِهِمْ فِي الْأَشْتِرَاكِ بِالْأَعْمَالِ وَالْوِظَائِفِ الْعَامَّةِ!

إِنَّمَا كَانَ النَّاسُ فِي تَخْيُّلَاتِهِمْ الْعَنْتَرِيَّةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَنْتَظِرُونَ أَنْ يَرَوْا

هَؤُلَاءِ الْفُرْسَانَ الْأَشَؤَسَ الَّذِينَ أَحَاطَتْ بِهِمْ بَعْدَ يِقْظَتِهِمْ هَذِهِ، جَمِيعُ
أَمْجَادِ أَجْدَادِهِمْ. كَانَ النَّاسُ يَنْتَظِرُونَ مِنَ الْأَمْرَاءِ الْأَشَؤَسِ أَنْ يُغَيِّرُوا
عَلَى الْمَعَاقِلِ وَالْحُصُونِ يَكْتَسِحُونَهَا وَيَسِيرُونَ فِي أَمْجَادٍ جَدِيدَةٍ تَكُونُ
نَهَائِتُهَا إِعَادَةَ عَرْشِهِمْ مِنْ جَدِيدٍ.

لَكِنَّ الْأَمْرَاءَ اكْتَفَوْا بِمَا كَانَ وَجَرَى وَمَا تَعَهَّدَ بِهِ الْفَرَنْسِيُّونَ وَالسُّلْطَاتُ
الْمَحَلِّيَّةُ لَهُمْ، فَهُمْ مَا كَانُوا وَلَا شَكَّ يُطَالِبُونَ بِحَقِّهِمْ بِعَرْشِ جَدِيدٍ،
وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الشَّيْءُ قَدْ خَطَرَ عَلَى بِالِهِمْ، وَخُصُوصًا لَمْ يَكُنْ خَطَرُ
وَقَدْ لَا يَخْطُرُ عَلَى بِالِ قَائِدِ حَرَكَتِهِمْ الشَّابُّ الَّذِي أَخَذَتْ حِينَذَاكَ
تَرْعَاهُ عَاطِفَةٌ شَعْبِيَّةٌ كَبِيرَةٌ، وَجَدَتْ فِي قِيَادَتِهِ لِفُرْسَانِ الْجَبَلِ الْأَبْيَضِ
أُسْطُورَةً رِوَائِيَّةً تُدْغِدُ وَتَرْعَى التَّصَوُّرَاتِ الْخَصْبَةَ، تَخِيلَاتِ الْعِظَمَةِ
وَالجَاهِ، يُسَاعِدُهُ بِذَلِكَ شَبَابُهُ الْيَافِعُ وَالْوَدَاعَةُ النَّبِيلَةُ وَالْفُتُوَّةُ الْبَارَةُ
الْوَرَعَةُ الَّتِي كَانَتْ وَلَا تَزَالُ مِنْ مَحَاسِنِ وَمِيزَاتِ الْأَمِيرِ فُؤَادِ شَهَابِ.

أَمِيرُ الْأَمْرَاءِ

قَامَتِ السُّلْطَاتُ الْاِئْتِدَابِيَّةُ وَالْوَطَنِيَّةُ بِبَعْضِ تِلْكَ التَّعْهُدَاتِ حَالًا، فَفَتَحَتْ
أَبْوَابَ الْوِظَائِفِ الْكُبْرَى وَالرُّتَبِ الْعَسْكَرِيَّةِ الْعَالِيَةِ لِبَعْضِ الْأَمْرَاءِ، يَتَحَلَّى
بَيْنَهُمْ بِجَمِيعِ الْمَزَايَا ذَاكَ الَّذِي قَادَ حَرَكَتَهُمْ وَأَثَبَتْ وُجُودَهُمْ وَأَحْيَا
ذِكْرَى أَمْجَادِهِمْ وَجَعَلَ أَمَامَهُ وَأَمَامَ مَاضِي أَجْدَادِهِمْ جَمِيعَ الْأَبْوَابِ
تَفْتَحُ، وَقَدْ كَانَ الْمُتَصَرِّفُونَ وَالْمَفُوضُونَ السَّامُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ أَقْفَلُوهَا
بُؤُجُوهِ أَوْلِيكَ الْأَمْرَاءِ وَسَاعَدُوا عَلَى تَفْرِقَةِ شَمْلِهِمْ وَزِيَادَةِ تَشْرِيدِهِمْ
وَصَيَاعِهِمْ.

أَعْطَتْهُمْ السُّلْطَاتُ بَعْضَ الْوِظَائِفِ مَعَ كُلِّ تَحْفُظٍ، وَبِطَرِيقَةٍ لَا تَجْعَلُهُمْ
يَتَكَلَّلُونَ وَلَا يُسَيِّرُونَ عَلَى مَرَاكِزِ حَسَاسَةٍ كُبْرَى يَسْتَطِيعُونَ بِهَا السَّيْرَ

في الأطماع التي كان بعض الفرنسيين يظنون أن الأمراء يحملونها ويحلّمون بتحقيقها، إذا سَنَحَتْ لَهُمُ الْفُرْصَةُ انْتَهَزُوهَا وَعَمِلُوا عَلَى إِعَادَةِ الْإِمَارَةِ إِلَى الْبِلَادِ الَّتِي كَانَتْ لِأَجْدَادِهِمْ، وَالَّتِي وَلَا شَكَّ كَانَتْ أَيَّامَهَا أَمْجَدَ أَيَّامِ عَرَفَهَا هَذَا الْجَبَل.

دَعْوَةٌ بِشَارَةِ الْخُورِيِّ

وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الْفَرَنْسِيُّونَ - حَتَّى عِنْدَمَا حَلُّوا عَنْ هَذِهِ الْبِلَادِ - حَدَّدُوا وَخَصَّصُوا بَعْضَ الْأُمَرَاءِ بِمَرَاكِزَ مُعَيَّنَةٍ لَا يُمَكِّنُ اجْتِيَازُهَا أَوْ تَجَاوُزُهَا، فَإِنَّ الرَّئِيسَ بِشَارَةَ الْخُورِيِّ مَا كَادَ يَعْتَلِي الرِّئَاسَةَ سَنَةَ ١٩٤٣، حَتَّى جَعَلَ الْأُمَرَاءَ يَجْتَازُونَ تِلْكَ الْحُدُودَ، فَاتِحًا لَهُمْ فِي السَّرَايِ مَجَالًا أَكْبَرَ لِلتَّوَسُّعِ وَالتَّبَسُّطِ.

وَكَانَ ذَاكَ الرَّئِيسُ حَكِيمًا جِدًّا فِي تَقْرُبِهِ مِنَ الْأُمَرَاءِ الشَّهَابِيِّينَ الَّذِينَ أَخَذُوا فِي الْوِظَائِفِ وَالْمَقَامَاتِ الْكُبْرَى وَالْمَجَالَاتِ الْوَاسِعَةِ الَّتِي فُتِحَتْ أَمَامَهُمْ، يُشْتَبُونَ أَنَّهَا حِكَايَةٌ كَذِبٌ وَاخْتِلَاقٌ، حِكَايَةُ الضَّعْفِ الَّتِي كَانَ النَّاسُ يُلْصِقُونَهَا بِهِمْ، وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَنْ تَقُومَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ الْحِينِ قَائِمَةٌ.

الْقَائِدُ الَّذِي أَحَبَّهُ جُنُودُهُ

فَإِنَّمَا عِنْدَمَا اسْتَدْعَى الرَّئِيسُ بِشَارَةَ الْخُورِيِّ عَنْ رَأْيِ فَهِيمِ نَبِيهِ، وَعَنْ مَعْرِفَةِ بِالرِّجَالِ وَعَنْ مُحَافَظَةِ عَلَى كِرَامَتِهِ وَكِرَامَةِ جُمْهُورِيَّتِهِ الْمُسْتَقْلَةِ، فَإِنَّمَا عِنْدَمَا اسْتَدْعَى قَائِدَ أَوْلِيكَ الْفُرْسَانِ - الَّذِينَ تَوَاعَدُوا سَنَةَ ١٩٣٩ عَلَى رَأْسِ جَبَلِ الشَّيْخِ - لِتَوَلِّي قِيَادَةَ الْجَيْشِ اللَّبْنَانِيِّ الْجَدِيدِ الَّذِي كَانَ

يُؤَلَّفُ مَا يُسْمُوهُ الْفِرْقَ الْخَاصَّةَ فِي أَيَّامِ الْفَرَنْسِيِّينَ - عِنْدَمَا اسْتَدْعَى
بِشَارَةَ الْخُورِيِّ الْأَمِيرِ فُؤَادِ شَهَابٍ لِقِيَادَةِ الْجَيْشِ الْجَدِيدِ، اسْتَدْعَى
أَفْضَلَ مَا عِنْدَهُ وَمَا عِنْدَ الْبِلَادِ وَمَا عِنْدَ الْأَمْرَاءِ، وَكَانَتْ يَدُهُ مَوْفَّقَةً
وَنِعْمَةً مِنَ السَّمَاءِ.

اسْتَدْعَى بِشَارَةَ الْخُورِيِّ فُؤَادِ شَهَابٍ لِقِيَادَةِ الْجَيْشِ الَّذِي خَرَجَ
حَدِيثًا عَنِ الْوِصَايَةِ وَالْقِيَادَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ، وَهُوَ خَلِيطٌ لَا تَرْبُطُ بَيْنَ
أَفْرَادِهِ لَا عَاطِفَةٌ وَطَنِيَّةٌ وَلَا قَوْمِيَّةٌ، بَلْ قَوَاعِدُ وَتَنْظِيمَاتٌ عَسْكَرِيَّةٌ.
اسْتَدْعَى بِشَارَةَ الْخُورِيِّ فُؤَادِ شَهَابٍ قَائِدًا لِلْجَيْشِ الْجَدِيدِ وَقَالَ
لَهُ وَهُوَ أَمِينٌ مِنْ هَذَا الْقَائِدِ، أَنْ يَجْعَلَ هَذِهِ الْعَنَاصِرَ الْمُتَفَرِّقَةَ
الْمُتَنَازِعَةَ الْخَارِجَةَ عَنِ قِيَادَةِ أوروپِيَّةِ قَاسِيَةِ كُبْرَى لَا تُعْرِفُ لَهَا
قِيَادَةً جَدِيدَةً، حَيْثُ قَالَ لَهُ: «اعْمَلْ مِنْ هَذَا الْخَلِيطِ جَيْشًا لُبْنَانِيًّا
صَحِيحًا قَوِيًّا وَطَنِيًّا».

كَانَ مَا أَرَادَ وَبِأَقْصَرِ مُدَّةٍ عَرَفَهَا النَّاسُ وَبِطَرِيقَةٍ كَامِلَةٍ عَجِيبَةٍ، وَمَا
وَمَضَى زَمَنٌ وَجِيزٌ إِلَّا وَكَانَ الْجَيْشُ اللَّبْنَانِي وَحُدَّةً وَطَنِيَّةً كَامِلَةً قَوِيَّةً
مُنْتَزِمَةً نَظِيفَةً مَوْحَدَةً فِي كُلِّ شَيْءٍ، خُصُوصًا فِي مَحَبَّةٍ - وَأَقُولُ فِي
عِبَادَةٍ - قَائِدِهَا الْمُمْتَازِ تَدِينُ لَهُ بِالْوَلَاءِ وَالْإِحْتِرَامِ؛ وَهُوَ يَدِينُ لِأَقْلٍ
عَسْكَرِيٍّ فِيهَا بِالرُّعَايَةِ وَالْعَطْفِ وَالْمَحَبَّةِ.

بَيْنَمَا كَانَ السِّيَاسِيُّونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَنْتَظِرُونَ الْفَوْضَى بَعْدَ جَلَاءِ
الْأَجَانِبِ، وَيَنْتَظِرُونَ التَّفَرُّقَ بَيْنَ الْفِرْقِ الْخَاصَّةِ، فَإِذَا بِقَائِدِهَا الْجَدِيدِ
الْأَمِيرِ الشُّهَابِيِّ يُكْذِبُهُمْ وَيُشَكِّلُ مِنْهُمْ بِأَقْصَرِ وَقْتٍ مُمَكِنٍ - كَمَا قُلْنَا
- جَيْشًا جَعَلَهُ ضَمَانَةً لِاسْتِقْرَارِ الْجُمْهُورِيَّةِ الْجَدِيدَةِ الْمُسْتَقْلَلَةِ يَحْفَظُ
كِيَانَهَا وَيُحَافِظُ عَلَى حَيَاتِهَا.

الجيش وليس النواب!

ليس النواب ولا الوزارات المتتابعه ولا الأحزاب الوطنيه على جميع اصنافها واسمائها هي التي جعلت لهذه الدوله كيانها ولهذه السراي قوتها وهيبتها - بل هو الجيش.

وقد رأيناه في الثورة عندما أراد عن حكمة عالية ووطنية كبرى عند قائده أن لا يورط البلاد بحرب أهلية فلا يأخذ مع جيشه جانباً من الجانبين، جانب الثائرين أو جانب السراي والموالين، وقد رأينا الجيش وقائده عند ذلك، يسيران على الموقف، وهما اللذان باعتراف جميع الناس اليوم، أنقذا البلد من التذبح الطائفي، وهما اللذان بموقفهما المحايد المحافظ بين المتحاربين أعادا الاستقرار والتأخي وكانا لوخديهما، دون غيرهما، صاحبي الفضل ببعث حياة جديدة، منتظمة حسنة، كريمة، لهذا البلد. وأثبتنا هكذا أن السراي التي لا تحكم على جيشها لا تستطيع أن تعيش، وأن الرئاسة التي ليس الجيش وراءها، يساندها ويؤيدها، نهايتها الفشل والخذلان.

الذي لا يريد عرشاً

جاء فؤاد شهاب رئيساً للبلاد سنة ١٩٥٨ بطريقة فريدة لم يعرفها غيره بين الرؤساء. ليس هنا فقط، بل في كل البلدان. جاء بالرغم عنه...

جاء والشعب بين يديه والجيش حوله، وما قام أحد بالبلاد يقول بغير مجيئه، وكنا مع عدد من السياسيين الكثيري التصورات تساءلنا إذا كان هذا الأمير، عندما وصل إلى هذا العز، وعندما وصل البلاد

إِلَى هَذِهِ الْأَمْجَادِ، لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالِهِ أَنْ يَبْعَثَ إِمَارَةً أَجْدَادِهِ.
وَلَكِنَّ تَسَاوُلَنَا كَانَ عَقِيمًا، فَإِنَّمَا أَوَّلُ كَلِمَةٍ ابْتَدَرْنَا بِهَا عِنْدَمَا نَشَرْنَا نُبْدَةَ
تَارِيخِيَّةً، عَنْ بَعْضِ الْوَقَائِعِ الَّتِي حَاوَلَ فِيهَا سِيَاسِيُّونَ إِعَادَةَ فِكْرَةِ
الإِمَارَةِ لِلْبُنَانِ، فَإِنَّمَا أَوَّلُ كَلِمَةٍ قَالَهَا لَنَا:

«أَنَا جُمْهُورِيٌّ مِثَّةً بِالْمِثَّةِ وَدِيمُقْرَاطِيٌّ أَلْفًا بِالْمِثَّةِ».

وَلَوْ أَرَادَ فُوَادُ شَهَابٍ لَهُ عَرْشًا، فَقَدْ جَاءَ يَوْمَ كَانَ الْعَرْشُ قَرِيبًا مِنْهُ
لِدَرَجَةٍ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَمُدَّ يَدَهُ حَتَّى يَلْتَقِطَهُ وَيَجْلِسَ فَوْقَهُ.
كَانَ ذَلِكَ يَوْمَ اسْتَقَالَ فِي صَيْفِ عَامِ ١٩٦٠.

يَوْمَ جَاءَ النَّوَابُ مِنْ جِهَةٍ وَجَاءَ الْأَهَالِي بِأَجْمَعِهِمْ مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ،
وَبِطَرِيقَةٍ لَمْ يَسْبِقْ لَهَا مَثِيلٌ، يَطْلُبُونَ مِنْهُ وَيُرْغَمُونَهُ عَلَى سَحْبِ
اسْتِقَالَتِهِ.

وَهَكَذَا يُمَكِّنُ لِلتَّارِيخِ اللَّبْنَانِيِّ أَنْ يَقُولَ:

«لَوْ أَرَادَ فُوَادُ شَهَابٍ أَنْ يُقِيمَ لَهُ عَرْشًا وَيَلْبَسَ التَّجَاجَ وَيَعْمَلَ مَلِكًا عَلَى
لُبْنَانَ لَفَعَلَ ذَلِكَ، وَلَوْ جَدَّ الْجَيْشَ وَالشَّعْبَ دَوْمًا حَوْلَهُ وَأَمَامَهُ».

صناديق الذهب

مخبرنا فتح الفرنسيون صناديق الذهب

كَانَتْ مُهِمَّتُنَا أَنْ نَسْتَجْلِبَ لِلْفَرَنْسِيِّينَ أَكْبَرَ عَدَدٍ مُمَكِّنٍ مِنَ الْأَهْلِينَ!
وَكُنَّا نَحْنُ، سَمَاسِرَةَ هَذِهِ السِّيَاسَةِ الْجَدِيدَةِ، نَتَوَلَّاهَا بِصُورَةٍ تُشْبِهُ التِّزَامَ
طَرِيقٍ، فَتَتَّفَقُ مَعَ الْفَرَنْسِيِّينَ عَلَى تَكَالِيفِهَا، وَنُنْفِذُهَا دُونَ أَنْ يَتَوَجَّهَ
عَلَيْنَا تَقْدِيمُ أَيِّ حِسَابٍ فِيمَا بَعْدُ عَنِ النَّفَقَاتِ!
هَذَا الِاتِّفَاقُ هُوَ الَّذِي قَطَعَ الطَّرِيقَ عَلَى الشَّكَاوَى الْكَثِيرَةِ الَّتِي كَانَتْ
تَتَوَارَدُ إِلَى الْمُفَوَّضِيَةِ السَّامِيَةِ ضِدَّنَا، مِنْ قِبَلِ السِّيَاسِيِّينَ الْحَسُودِينَ،
الَّذِينَ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّنا نَبْتَلِغُ الْأَمْوَالَ الْمُقْبُوضَةَ وَلَا نوزُعُ إِلَّا الْجُزْءَ
الصَّغِيرَ مِنْهَا، فِي حِينِ أَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا مَكَانَنَا، لَفَعَلُوا أَكْثَرَ مِمَّا فَعَلْنَا!
وَلَكِنْ طَالَمَا كُنَّا نَقُومُ بِالْمُهْمَةِ الْمَنُوطَةِ بِنَا، فَلَمْ يَكُنْ عَلَيْنَا أَيُّ حَرَجٍ،
فِي أَنْ نَحْتَفِظَ لِأَنْفُسِنَا بِأَيِّ مَبْلَغٍ مِنَ الْأَمْوَالِ الْمُخَصَّصَةِ لِتِلْكَ الْمُهْمَةِ!
مُنْذُ السَّاعَةِ الْأُولَى لِذُخُولِ الْحُلَفَاءِ إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ فِي خَرِيفِ ١٩١٨،
بَدَأَ «الْبَازَارُ» السِّيَاسِيُّ، الَّذِي مَا يَزَالُ قَائِمًا حَتَّى الْآنَ فِي جَمِيعِ
الْبُلْدَانِ الْعَرَبِيَّةِ، رَغْمَ تَطَوُّرِ الْأَحْوَالِ وَتَبَدُّلِ السُّلْطَاتِ وَتَغْيِيرِ الْأَنْظِمَةِ.
إِنَّهُ بَازَارٌ - أَوْ بِالْحَرِيِّ سَوْقٌ حَرَاجٍ^(١) - صَالَ وَجَالَ فِيهِ النُّبَهَاءُ مِنَ النَّاسِ

(١) سَوْقٌ مُحَاجَجَةٌ، مِنْ مُحَكِّمَاتِ إِسْكَندَرِ.

في لبنان، الَّذِينَ أَدْرَكُوا أَنَّ الْحَرْبَ الْعَامَّةَ لَا تَقَعُ كُلَّ يَوْمٍ، وَلَيْسَ فِي كُلِّ
يَوْمٍ تَنْكَسِرُ تُرْكِيَا، وَتَنْفِصِلُ الْبُلْدَانُ الْعَرَبِيَّةُ عَنْهَا، وَتَقُومُ الْمَزَايِدَاتُ بَيْنَ
الْإِنْكِلِيزِ وَالْفَرَنْسِيِّينَ لِلْوَصَايَةِ أَوْ الْحِمَايَةِ لِمُشْتَرِي هَذِهِ الْبُلْدَانِ الْعَرَبِيَّةِ!
إِنَّهَا لَفُرْصَةٌ عَجِيبَةٌ نَادِرَةٌ، تَقَعُ مَرَّةً كُلَّ مِئَةٍ أَوْ مِئَتَيْ سَنَةٍ، وَالشَّاطِرُ
الْحَادِقُ هُوَ الَّذِي يَعْرِفُ كَيْفَ يَسْتَفِيدُ مِنْهَا وَالشُّطَارُ الْحَادِقُونَ لَمْ
يَكُونُوا قَلِيلِينَ فِي لُبْنَانَ!

جَزِيَّةُ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى الدَّوْلِ الْكُبْرَى

هَذَا «الْبَارِزُ» كَانَ، وَمَا يَزَالُ، صَرِيبَةً الدَّخْلِ الْكُبْرَى، تَسْتَوْفِيهَا الْبُلْدَانُ
الْعَرَبِيَّةُ مِنَ الدَّوْلِ الَّتِي اسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا، ثُمَّ جَلَّتْ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْهَا
مُرْغَمَةً، وَمَعَ هَذَا مَا زَالَتْ تَطْمَعُ بِهَا وَتَأْمَلُ بِالْعَوْدَةِ إِلَيْهَا.
وَصَرِيبَةُ الدَّخْلِ هَذِهِ، الَّتِي وَضَعْنَاهَا عَلَى تِلْكَ الدَّوْلِ الْكُبْرَى الطَّامِعَةِ
فِينَا، بَدَأَتْ تَدْفَعُهَا نَقْدًا مُنْذُ أَوَّلِ يَوْمٍ دَخَلَتْ فِيهِ هَذِهِ الْبِلَادَ، وَيُمْكِنُ
تَقْدِيرُهَا بِمِائَاتِ الْمَلَايِينِ مِنَ اللَّيْرَاتِ. وَهِيَ تُشَكِّلُ حَسَبَ قَوْلِ الْعَارِفِينَ
ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ ثَرْوَةِ هَذِهِ الْبُلْدَانِ الْعَرَبِيَّةِ، قَبْضَانَهَا تَحْتَ أَسْمَاءِ مُتَعَدِّدَةٍ،
وَلَكِنَّ النَّتِيجَةَ وَاحِدَةً، كَحِكَايَةِ مَرَّتَا.

جَاءَتْ هَذِهِ السُّوقُ فِي أَعْقَابِ الْحَرْبِ الْكُبْرَى الْأُولَى، النَّاسُ فِي لُبْنَانَ
خَارِجُونَ مِنْهَا جِيَاعًا عُرَاءً، يُفْتَشُونَ عَنِ اللُّقْمَةِ فَلَا يَجِدُونَهَا، فَفَقَدُوا
تَوَازُنَهُمْ لَمَّا رَأَوْا الْفُلُوسَ تُرْمَى أَمَامَهُمْ مِنَ الشَّبَابِيكِ.

سُكُوتُ الْإِنْكِلِيزِ وَثَرْتَرَةٌ الْفَرَنْسِيِّينَ

الْإِنْكِلِيزُ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَى لُبْنَانَ قَبْلَ وُصُولِ الْفِرْقَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ بِأَسْبُوعٍ
وَاحِدٍ، لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا عَنِ الْمَصِيرِ الْمُقَرَّرِ لِهَذِهِ الْبِلَادِ، وَتَرَكَوا الْأَهْلِينَ

يَتَسَاءَلُونَ: ماذا يُكونُ يا تُرى ذَليكَ المَصير؟!
أَيُتَّبَعُ اللُّبْنَانِيُّونَ الشَّرِيفَ حُسَيْنًا وَأُنْجَالَهُ، أَمْ يُضْبِحُونَ فَرَنْسِيِّينَ وَإِنْكَلِيزِ،
أَمْ أَمِيرِكِيِّينَ؟

وَمَا انْجَلَى الأَمْرُ نَوْعًا مَا، وَعَرَفْنَا أَنَّ مَصِيرَنَا جَالِسٌ عَلَيَّ كَفِّ عِفْرِيَتِ،
إِلَّا عِنْدَمَا وَصَلَتِ الفِرْقَةُ الفَرَنْسِيَّةُ وَعَلَى رَأْسِهَا البِعثَةُ السِّيَاسِيَّةُ بِرِئَاسَةِ
المسيو كولندر وَكَيْلَا عَنِ المَقْوُوضِ السَّامِي المَسِيو جُورج بِيكو. عِنْدِيذِ
عَرَفْنَا أَنَّ الحِكَايَةَ هِيَ حِكَايَةُ مُسَاوَمَةٍ عَلَيَّ بُلْدَانِنَا.

وَمَعَ كُلِّ العُمُوضِ الَّذِي كُنَّا فِيهِ، كَانَ المَسِيحِيُّونَ فِي سُورِيَا وَلُبْنَانَ
عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّ فَرَنْسَا هِيَ الَّتِي سَتَتَسَلَّمُ البَلَدَيْنِ. وَكَانَ المُسْلِمُونَ
عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّ إِنْكَلِتْرَا لَنْ تَتْرَكَ لِلْفَرَنْسِيِّينَ هَذِهِ الغَنِيمَةَ الكُبْرَى،
فَإِذَا لَمْ تَأْخُذْ مِنْهَا البَلَدَيْنِ، فَالْأَرْجَحُ أَنَّ تَتْقَاسَمَ وَإِيَاهَا تِلْكَ الغَنِيمَةُ
فَيَكُونُ لُبْنَانُ لِفَرَنْسَا وَسُورِيَا لِلْإِنْكَلِيزِ!

قُلْنَا لَمْ نَعْرِفْ شَيْئًا عَنِ هَذِهِ الحَالَةِ إِلَّا عِنْدَمَا وَطَأَتْ أَقْدَامُ البِعثَةِ
الفَرَنْسِيَّةِ بِيَرُوتَ، وَتَكَلَّمَ الفَرَنْسِيُّونَ.

وَالْفَرَنْسِيُّونَ يَخْتَلِفُونَ عَنِ الإِنْكَلِيزِ كَثِيرًا فِي هَذَا الصِّدَدِ، فَالْإِنْكَلِيزُ بِنُرِّ
عَمِيقَةٍ، دَابُّهُمُ الصَّمْتُ وَكِنْمَانُ أُمُورِهِمْ، وَالْفَرَنْسِيُّونَ مَفْضُوحُونَ لَيْسَ
عِنْدَهُمْ مَسْتُورٌ!

يَوْمَ جَاؤُوا يُغْنُونَ: بَلَدِي يَا بَلَدِي!

وَأَسْتَطِيعُ القَوْلَ إِنَّنِي بَعْدَ حَبِيبِ بَاشَا السَّعْدِ، أَوْ مَعَ حَبِيبِ بَاشَا السَّعْدِ
وَبِضْعَةِ سِيَاسِيِّينَ مَوَارِنَةٍ، كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ عَرَفَ أَنَّ الإِنْكَلِيزَ وَالْفَرَنْسِيِّينَ
الَّذِينَ تَقَاسَمُوا البُلْدَانَ العَرَبِيَّةَ سَنَةَ ١٩١٥ فِي مُعَاهَدَةِ سَايِكْس - بِيكو،
قَدْ مَسَحُوا تِلْكَ المُعَاهَدَةَ بِأَحْذِيَّتِهِمْ بَعْدَ النَّصْرِ، وَعَادُوا يَتَنَاقَسُونَ

عَلَيْهَا مِنْ جَدِيد.

فِي صَيْفِ ١٩١٨، خَرَجَ الْحُلَفَاءُ فِي حَمَلَتِهِمِ الْكُبْرَى مِنْ مِصْرَ،
يَدْفَعُونَ الْأَتْرَاكَ وَالْأَلْمَانَ أَمَامَهُمْ فِي صَحْرَاءِ سَيْنَاءَ، وَكَانَتِ الْحَمَلَةُ
الْإِنْكِلِيزِيَّةُ مُؤَلَّفَةً مِنْ سِتِّينَ أَلْفِ جُنْدِيٍّ، تُرَافِقُهَا فِرْقَةٌ إِفْرَنْسِيَّةٌ
رَمْزِيَّةٌ لَا تُعَدُّ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرَةِ أَلْفِ رَجُلٍ، وَوَرَاءَ الْحَمَلَةِ كَانَ يَسِيرُ
عَشْرَةُ أَلْفِ عَامِلٍ مِصْرِيٍّ.

وَمَا زِلْنَا حَتَّى الْآنَ نَذْكُرُ أَغْنِيَةَ الْعُمَّالِ الْمِصْرِيِّينَ، تَتَرَدَّدُ فِي كُلِّ
مَكَانٍ:

بَلَدِي يَا بَلَدِي وَاَنَا عَاوِزُ رَوْحِ بَلَدِي
بَلَدِي بِطَنْطَا يَا مَامَا ضَبِّي الشَّنْطَةَ
وَالْحَرْبُ فِيهَا أَوْنُطَةَ أَنَا عَاوِزُ رَوْحِ بَلَدِي!

وَكَانَ الْجُنُودُ الْإِنْكِلِيزِيُّ يَشْتَرِكُونَ مَعَ الْعُمَّالِ الْمِصْرِيِّينَ فِي هَذِهِ
الْأَغْنِيَةِ التَّارِيخِيَّةِ، الَّتِي أَصْبَحَتْ بَعْدَ حِينٍ أَغْنِيَةً وَطَنِيَّةً شَبِيهَةً
بِأَغْنِيَةِ الْعَسْكَرِ الْفِرَنْسَاوِيِّ الْمَشْهُورَةِ بِاسْمِ «الْمَادَلُون» أَوْ بِأَغْنِيَةِ
الْعَسْكَرِ الْإِنْكِلِيزِيِّ «الطَّرِيقُ طَوِيلَةٌ إِلَى تِيبَارَارِي».

كُنْتُ صَدِيقًا لِلْمِستَرِ كُولْنَدِرِ قَبْلَ الْحَرْبِ

فِي أَوَّلِ يَوْمٍ وَصَلَتْ فِيهِ الْبَعْثَةُ الْفِرَنْسِيَّةُ السِّيَاسِيَّةُ لِبَيْرُوتَ، وَذَلِكَ
فِي تَشْرِينِ الثَّانِي سَنَةِ ١٩١٨، اسْتَدْعَى الْمَسِيُو كُولْنَدِرِ حَبِيبَ بَاشَا
السَّعْدَ، بِوَصْفِهِ رَئِيسَ مَجْلِسِ إِدَارَةِ لُبْنَانَ، وَقَالَ لَهُ:

«الْحِكَايَةُ كَذَا كَذَا...»

كَانَ حَبِيبُ بَاشَا السَّعْدِ قَدْ دَعَانِي لِمُرَافَقَتِهِ، عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّي
أَعْرِفُ كُولَنْدِرَ جَيِّدًا، فَقَبِلَ الْحَرْبَ كَانَ كُولَنْدِرَ فُنْصَلًا ثَانِيًا لِفَرَنْسَا
بِيَّيْرُوتَ، وَكُنْتُ أَشَدَّ النَّاسِ تَقَرُّبًا مِنْهُ، وَعَرَفَ الْبَاشَا أَيْضًا أَنَّ كُولَنْدِرَ،
فِي الْيَوْمِ الَّذِي وَطَأَتْ فِيهِ قَدَمَاهُ بِيَّيْرُوتَ، اسْتَدْعَانِي مِنْ زَحَلَةٍ
حَيْثُ كُنْتُ لِاجْتِنَاءِ، وَأَرْسَلَ لِي سَيَّارَةَ «فُورْد» لِتَأْتِي بِي، وَكَانَتْ أَوَّلَ
سَيَّارَةِ إِفْرَنْسِيَّةٍ دَخَلْتُ زَحَلَةَ وَعَلَيْهَا الْعَلَمُ الْمُثَلَّثُ الْأَلْوَانِ، فَقَامَتِ
الْمَدِينَةُ بِأَسْرِهَا، بِالرَّغْمِ مِنْ احْتِلَالِ الْإِنْكِلِيزِ، تَسْتَقْبِلُهَا وَتُحِيطُ بِهَا،
وَتَهْلُلُ لِفَرَنْسَا وَتَنْشُدُ الْمَارَسِيَا!

قَالَ لَنَا كُولَنْدِرُ:

«الْحِكَايَةُ أَصْبَحَتْ بَعْدَ دُخُولِ الْإِنْكِلِيزِ بِجَيْشِهِمُ الْكَبِيرِ حِكَايَةَ
تَرَاحُمٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ، فَهَمُ أَخَذُوا يُنْكِرُونَ عَلَيْنَا
مُعَاهَدَةَ سَايْكِس - بِيْكَو وَيَتَمَسَّكُونَ بِحَقِّ الْفَتْحِ، اعْتِبَارًا أَنَّ جَيْشَهُمْ
هُوَ الَّذِي فَتَحَهَا».

وَلِمَاذَا طَوَّلَ الْحَدِيثَ؟

فَهَمُ الْبَاشَا مِنْ كُولَنْدِرِ أَنَّ الْفَرَنْسِيِّينَ يُرِيدُونَ إِعَادَةَ مَجْلِسِ الْإِدَارَةِ
الْقَدِيمِ إِلَى مَرْكَزِهِ، وَأَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ مِنْ ذَلِكَ الْمَجْلِسِ وَضَعَ مُدْكَرَةٍ
بِطَلْبِ الْحِمَايَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ لِلْبِلَادِ!

كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ قَبْلَ ذَلِكَ كُولَنْدِرَ يَقُولُ إِنَّهُ إِذَا كَانَ الْإِنْكِلِيزُ قَدْ
مَلَأُوا سُورِيَا وَلُبْنَانَ بِجُيُوشِهِمْ، وَلَيْسَ عِنْدَ الْفَرَنْسِيِّينَ غَيْرُ تِلْكَ
الْفِرْقَةِ الصَّغِيرَةِ مِنَ الْجُنُودِ، فَإِنَّ فَرَنْسَا مَا تَزَالُ تَمْلِكُ وَسَائِلَ
أُخْرَى لِمُنَافَسَتِهِمْ!

الصندوقجي كان اسمه... ماسينيون!

وهكذا كانت الحالة: المارشال اللّنبى وجيشه من جانب، والمصري الفرنسيّة من جانب آخر، يدعّمها ما كان للفرنسيين من روابط وتقاليد في هذه البلاد، ومن اتّفاقات لم يستطع الإنكليز التملّص منها. والصندوقجي، هو الآخر، كان حاضراً، ويعرف العربيّة جيّداً، حتّى يستطيع أن يفهم على الناس ويفهموا هم عليه، إذا كانوا لا يعرفون الإفرنسيّة. وكان الصندوقجي الكابتن ماسينيون، الذي عرفه العالم العربيّ بعد حينٍ مُستشرقاً عالمًا كبيراً، وقد زار لبنان وسوريا فيما بعد مرّات عديدة، واجتمع إلى آبائهما كثيراً في الأندية والجمعيات والكليات العلميّة. وهكذا بدأ ذلك البازار الدوليّ بين الحليفتين الكبيرتين، وأخذت الأموال الإنكليزيّة والفرنسيّة تتدفّق على البلدين للدّعاية...

وأخيراً جاء دور الرّجل الثّالث!

جاء الرّجل الثّالث من وراء الرّئيس ويلسون الأميركيّ! ولم يكن أحد في هذه البلاد يعرف في ذلك الحين أميركا سياسياً! كان الناس، وأخصّهم أهل جبل لبنان، يعرفون الدّولار الأميركيّ بفضل العدّد الكبير من المُغتربين الذين هاجروا لأميركا وأخذوا منذ مئة سنة ويّيف يرسلون إلى أهلهم ذاك المکتوب «المسوّكر»^(٢) الشهريّ المُنتظر على أحرّ من النار... وأي بيت في أيّة قرية من جبل لبنان، لم يكن له مکتوب «مسوّكر» ينتظره بفارغ الصّبر وبشوق زائد؟

(٢) المکتوب المسجّل.

وَكُنَّا فِي ذَلِكَ الْحِينِ نَعْرِفُ أَمِيرِكَا إِنْسَانِيًّا وَاجْتِمَاعِيًّا، مِمَّا أَرْسَلْتُهُ إِلَيْنَا
أَثْنَاءَ الْحَرْبِ الْأُولَى مِنْ مَلَابِسٍ وَأَعْذِيَةِ عَنِ طَرِيقِ «جَمْعِيَةِ مُسَاعَدَةِ
الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ» الَّتِي أَنْشَأْتَهَا فِي هَذِهِ الْبِلَادِ، بِرِعَايَةِ الْجَامِعَةِ الْأَمِيرِكِيَّةِ،
وَكَانَ مَرْكَزُهَا الْأَسَاسِيُّ بِيْرُوتَ!

وَلَكِنْ، كَانَ مَبْدَأُ مُونَرُو يَوْمَئِذٍ مَا يَزَالُ الْقَاعِدَةَ الْأَسَاسِيَّةَ لِسِيَّاسَةِ أَمِيرِكَا
الْخَارِجِيَّةِ، أَيَّ قَاعِدَةَ الْعَزَلَةِ التَّامَّةِ، وَاكْتِفَاءِ أَمِيرِكَا بِأَمِيرِكَا وَالْأَمِيرِكِيِّينَ
بِالْأَمِيرِكِيِّينَ، فَلَا تَدْخُلُ فِي الْبُلْدَانِ الْأُخْرَى، لَا فِي أُرُوبَا وَلَا فِي آسِيَا
وَلَا أَفْرِيْقِيَا!

حَرْبُ الْكُتْلَتَيْنِ وَحَرْبُ الْمَذْهَبَيْنِ

وَفَجْأَةً، سَمِعْنَا أَنَّ الرَّجُلَ الثَّلَاثَ سَافَرَ إِلَى بَارِيْسِ حَيْثُ كَانَ مَجْلِسُ
الْأَرْبَعَةِ يَفْتَسِمُ الْعَالَمَ، بِرِئَاسَةِ الرَّئِيسِ وَيْلَسُونِ الْأَمِيرِكِيِّ. وَلَمْ يَكُنْ
أَحَدٌ يَتَصَوَّرُ أَنَّ ذَاكَ الرَّجُلَ الصَّارِمَ الْعَالِمَ، الْمُعْتَكِفَ فِي مَكْتَبِهِ بِبِيْرُوتِ
سَيَخْرُجُ هَكَذَا، وَيُعْلِنُ الْحَرْبَ عَلَى فَرَنْسَا.

كَانَ الرَّجُلُ الثَّلَاثُ هُوَ الْمِسْتَرُ بِلْسْ - رَيْسُ الْجَامِعَةِ الْأَمِيرِكِيَّةِ بِبِيْرُوتِ
يَوْمَئِذٍ - وَآخِرُ مَنْ يَتَوَقَّعُهُ النَّاسُ أَنْ يَشْتَغَلَ بِالسِّيَاسَةِ الدَّوْلِيَّةِ!
مَاذَا ذَهَبَ يَعْمَلُ الْمِسْتَرُ بِلْسْ بِبَارِيْسِ عِنْدَ مَجْلِسِ الْأَرْبَعَةِ: وَيْلَسُونِ
الْأَمِيرِكِيِّ وَكَلِيمَنْصُو الْفَرَنْسَاوِيِّ وَلُويْدُ جُورْجِ الْإِنْكِلِيزِيِّ وَأُورْلَنْدُو
الْإِيْطَالِيِّ؟

ذَهَبَ بِلْسْ يَعْمَلُ لِمَدِّ إِصْبَعِ أَمِيرِكَا إِلَى سُورِيَا وَلُبْنَانَ وَلِيَمْنَعِ
الْفَرَنْسِيِّينَ مِنَ الْحُصُولِ عَلَى الْوِصَايَةِ أَوْ الْحِمَايَةِ أَوْ الْاِئْتِدَابِ عَلَيْهِمَا.
فَالْمِسْتَرُ بِلْسْ يُوَصِّفُهُ رَيْسُ الْجَامِعَةِ الْأَمِيرِكِيَّةِ الْإِنْجِيلِيَّةِ الْبُرُوتِسْتَانْتِيَّةِ،
كَانَ يَفْتَرِضُ أَنَّ وَاجِبَهُ يَدْعُوهُ إِلَى اعْتِبَارِ الْفَرَنْسِيِّينَ أَكْبَرَ أَعْدَاءِ لَهُ!

وَكَانَتْ الْحَرْبُ الصَّامِتَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ - تَرْجِعُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَكْثَرَ مِنْ سِتِّينَ سَنَةً إِلَى الْوَرَاءِ - تَرْجِعُ إِلَى يَوْمِ جَاءَ الْجَزَوِيُّ وَالْعَازَارِيُّونَ يَفْتَحُونَ الْمَدَارِسَ الْفَرَنْسِيَّةَ فِي بَيْرُوتَ وَجَبَلِ لُبْنَانَ وَطَرَابُلُسَ وَصَيْدَا وَدِمَشْقَ وَحَلَبَ وَغَيْرَهَا، ثُمَّ جَاءَ الْأَمِيرُكَانُ يَفْتَحُونَ كُلِّيَّتَهُمْ بِبَيْرُوتَ وَمَا يَتَفَرَّغُ عَنْهَا مِنْ إِزْصَالِيَاتٍ بَرُوتِسْتَانِيَّةٍ فِي الْجَبَلِ وَمُدُنِ السَّاحِلِ. وَكَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ مَذْهَبِيًّا أَنْ تَبْدَأَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مُزَاحِمَةٌ شَدِيدَةٌ مُنْذُ السَّاعَةِ الْأُولَى، وَأَنْ تَزْدَادَ يَوْمًا عَنْ آخَرَ.

كَانَتْ حَرْبًا عَوَانًا بَيْنَ الْبَرُوتِسْتَانِيَّةِ وَالْكَثْلَكَةِ، وَدَامَ التَّرَاحُمُ أَكْثَرَ مِنْ قَرْنٍ!

كَانَ الْجَزَوِيُّ وَالْعَازَارِيُّونَ وَغَيْرُهُمْ مِنْ مُمَثَّلِي الْإِزْصَالِيَاتِ الْفَرَنْسِيَّةِ الْمُعْتَمَدَةِ، رُهْبَانًا وَرَاهِبَاتٍ، يَزْدَادُونَ قُوَّةً وَنَشَاطًا، وَكَانَ الْأَمِيرُكَانُ عِنْدَ الْمِسْتَرِ بِلِسَّ يَزْدَادُونَ مَالًا وَتَوْسَعًا، عَلَى أَنَّ زَبَائِنَ الْأُولَيْنِ وَأَصْدِقَاءَهُمْ كَانُوا ٩٥ بِالْمِئَةِ مِنَ الْمَوَارِنَةِ وَالْكَاثُولِيكِ وَاللَّاتِينَ. وَكَانَ أَكْثَرُ زَبَائِنِ الْأَمِيرُكَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُؤَيِّدُهُمُ الْأَرْثُودُكْسُ نِكَايَةً بِالْمَوَارِنَةِ!

الرُّجُوعُ إِلَى كَاتِدْرَائِيَّةِ مَارِ جِرْجِسِ الْمَارُونِيَّةِ!

فِي أَوَائِلِ الْاِحْتِلَالِ، لَمَّا وَصَلَتِ الْفِرْقَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ لِلْبِلَادِ وَسَلَّمَهَا الْإِنْكَلِيزُ فِي الْمِنْطَقَةِ الْغَرْبِيَّةِ لِلْسُّلْطَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ، رِيثَمَا يَتَقَرَّرُ مَصِيرُهَا النَّهَائِيُّ، بَرَزَ الْأَبُ شَانْتُورُ رَيْسُ الْجَزَوِيَّةِ وَالْأَبُ سَارْلُوتُ رَيْسُ الْعَازَارِيَّةِ وَمَدْرَسَةُ عَيْنُطُورَةَ. وَكَانَ هَذَا يَوْمًا مُحَارِبًا بِالْجَيْشِ الْفَرَنْسِيِّ. وَقَدْ امْتَلَأَ صَدْرُهُ بِالْأُوسَمَةِ وَالنِّيَاشِينَ!

بَرَزَ الْاِثْنَانُ إِلَى الْمَيْدَانِ وَصَارَ لهُمَا بِطَبِيعَةِ الْحَالِ الْكَلِمَةُ الْأُولَى عِنْدَ

الْبَعْثَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ، يَعْمَلَانِ مَا يُرِيدَانِ فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ وَيَمْلَأَنِ السَّرَايَاتِ، وَأَخْصَهَا سَرَايَ الْبُرْجِ وَالْمُفَوَّضِيَّةِ السَّامِيَّةِ بِتِلَامِذَةٍ مَدَارِسِهِمَا. وَيَسُدَّانِ سُبُلَ الْوُظَائِفِ وَالْأَنْدِيَةِ السِّيَاسِيَّةِ عَلَى كُلِّ مَنْ لَهُ عِلَاقَةٌ بِالْمِسْتَرِ بِلِسِّ وَجَامِعَتِهِ وَفُرُوعِهَا الْمُبَاشِرَةِ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ.

وَأَصْبَحَ بَيْنَ كُلِّ عَشْرَةِ مُوظَّفِينَ، كِبَارٍ وَصِغَارٍ، ثَمَانِيَةٌ عَلَى الْأَقْلُ يَعْمَلُونَ بِوَحْيِ الْأَبِّ شَانْتورِ أَوْ الْأَبِّ سَارلوتِ.

وَوَصَلَ اسْتِيَاءُ الْمِسْتَرِ بِلِسِّ إِلَى حَلْقِهِ، خُصُوصًا عِنْدَمَا أَعْلَنَ الْمِسِيو كُولندِرَ، فِي أَوَّلِ قُدَّاسٍ رَسْمِيٍّ حَضَرَهُ بِكَاتِدْرَائِيَّةٍ مَارِ جِرْجِسِ الْمَارُونِيَّةِ، بَعْدَ أُسْبُوعٍ مِنْ وُصُولِ الْبَعْثَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ: «أَنَّ فَرَنْسَا تَأْتِي إِلَيَّ هَذِهِ الْبِلَادِ لِتُخَمِّي الْمَوَارِنَةَ وَتُحَافِظَ عَلَيَّ صِدَاقَتِهِمْ لَهَا، وَلَكِنْ تَتَرَجَّعْ!».

وَجَعَلَ الْأَبُّ شَانْتورِ وَالْأَبُّ سَارلوتِ وَمِثَاتُ الرُّهْبَانِ وَالرَّاهِبَاتِ الْفَرَنْسِيَّاتِ وَعَیْرَ الْفَرَنْسِيَّاتِ قَوْلَ الْمِسِيو كُولندِرِ هَذَا شِعَارًا فِي مَدَارِسِهِمْ وَمَعَاهِدِهِمْ وَمَحَطَّ كَلَامٍ عَامٍّ.

كَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَفُورَ دَمُ الْمِسْتَرِ بِلِسِّ مِنْ هَذِهِ التَّحَدِّيَاتِ غَیْرَ الْمَعْقُولَةِ مِنْ جَانِبِ الْبَعْثَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ التَّحَدِّيَاتِ كَانَتْ تُشْفِي غَلِيلَ شَانْتورِ وَسَارلوتِ.

وَحَمَلَ بِلِسُّ حَقِيبَتَهُ وَسَافَرَ إِلَى بَارِيسٍ قَاصِدًا الْمِسْتَرِ وَلُسْنِ وَمَشَى فِي رِكَابِهِ الْمِسْتَرِ أُوليفِرَ، رَئِيسُ جَمْعِيَّةِ «الْفَرَنْدَزِ» الْأَنْجَلُو - أَمِيرِكِيَّةِ. وَكَانَ مَقْرُهُ الْعَامُّ فِي رَأْسِ الْمَتْنِ، وَكَانَ نَجِيبٌ صَالِحَةٌ مِنْ تِلَامِذَتِهِ.

وَكَانَ وَيَلْسُونُ يَوْمَئِذٍ قَدْ أَعْلَنَ فِي جُنُونِهِ الدِّيْمُقْرَاطِيِّ بُنُودَهُ الْأَرْبَعَةَ عَشَرَ الْمَشْهُورَةَ، وَالَّتِي كَانَتْ السَّبَبَ مِنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ حَتَّى الْآنَ فِي فِئْدَانِ التَّوَاؤُنِ السِّيَاسِيِّ فِي الْعَالَمِ، وَفِي قِيَامِ هَذِهِ الْفُوضَى الْاسْتِقْلَالِيَّةِ عِنْدَ الشُّعُوبِ بِأَسْرِهَا، وَبِنُوعِ خَاصٍّ عِنْدَ الشُّعُوبِ الصَّغِيرَةِ الْمُتَعَدِّدَةِ الْأَلْوَانِ وَالْأَجْنَاسِ!

كَانَ أَوَّلَ مَا جَمَعَ بَيْنَ وِلْسُونِ وَبَلِيسَ، الرِّمَالَةَ فِي التَّعْلِيمِ، فَالِاثْنَانِ كَانَا مُعَلِّمِي مَدْرَسَةٍ، ثُمَّ رَئِيسِي جَامِعَتَيْنِ: جَامِعَةَ بَيْرُوتِ لِبَلِيسَ وَجَامِعَةَ بَرِنْسْتونِ لِيُولِيسُونِ.

وَكَانَتْ فَرْحَةً وَيَلْسُونِ كَبِيرَةً لَمَّا وَصَلَ هَذَا الرِّمِيلُ مِنَ الشَّرْقِ البَعِيدِ إِلَى بَارِيسَ، فَأَنْزَلَهُ مَنْزِلَةَ الرَّفِيقِ وَأَخَذَ يُصْغِي إِلَيْهِ. وَكَانَ وَيَلْسُونِ مَعْرُوفًا بِإِفْتِنَاعِهِ بِأَقْوَالِ مُحَدِّثِيهِ، خُصُوصًا إِذَا كَانُوا مِنْ زُمَلَائِهِ مُعَلِّمِي المَدَارِسِ، وَكَانَ الحَدِيثُ عَن مُسَاعَدَةِ الشُّعُوبِ الضَّعِيفَةِ وَإِعْطَائِهَا حَقَّهَا بِإِنْتِقَاءِ مَصِيرِهَا!

وَيَلْسُونُ يُقَرِّرُ إِرسَالَ لَجْنَةِ تَحْقِيقِ

قَرَّرَ وَيَلْسُونُ حَالًا، لِوَحْدِهِ، وَبِالطَّبْعِ خِدْمَةً لِزَمِيلِهِ فِي بَيْرُوتِ المِسْتَرِ بَلِيسَ، إِجْرَاءً اسْتِفْتَاءً فِي هَذِهِ البُلْدَانِ العَرَبِيَّةِ المُنْفَصَلَةِ عَن تُرْكِيَا. فَلِمَاذَا يَتَّقَاتُلُ الفَرَنْسِيُّونَ وَالْإِنْكِلِيزِيُّونَ عَلَيْهَا، وَكُلُّ يَدَّعِي حَقَّهُ فِيهَا؟ لِمَاذَا لَا تَقُولُ هِيَ كَلِمَتَهَا فِي مَصِيرِهَا؟

وَيَبِينُ هَذَا السُّؤَالَ، وَيَبِينُ فِكْرَةَ إِرسَالَ لَجْنَةِ تَسْتَفْتِي أَهْلِ سوريَا وَلُبْنَانَ، كَانَ وَيَلْسُونُ قَدْ أَعَدَّ مَشْرُوعَهُ وَقَدَّمَهُ لِمَجْلِسِ الأَرْبَعَةِ! وَتَظَاهَرَ لويْدُ جُورْجِ بِالصَّمِّ وَالبَكَمِ. وَغَضِبَ كَلِيمَنصُو غَضَبَةً فَرَنْسِيَّةً، فَهَدَّدَ وَتَوَعَّدَ وَقَالَ الطَّلِيَانِيُّ إِنَّهُ مُسْتَعِدٌّ لِأَن يَرْضَى بِمَا يُقَرِّرُهُ الدَّوَاتُ! وَأخِيرًا، قَالَ الإِنْكِلِيزِيُّ وَالفَرَنْسَاوِيُّ لِيُولِيسُونِ إِنَّهُ حُرٌّ فِي أَن يُرْسَلَ اللِّجْنَةَ الَّتِي يُرِيدُهَا، وَلَكِنَّ فَرَنْسَا وَإِنْكَلِتْرَا تَحْتَفِظَانِ بِحُقُوقِهِمَا وَمَصَالِحِهِمَا وَاتِّفَاقِهِمَا، وَلَا تَعْتَرِفَانِ بِمَا تُقَرِّرُهُ اللِّجْنَةُ وَلَا بِمَا سَتَفْعَلُهُ. وَأَمَّا الاسْتِفْتَاءُ الَّذِي سَتُجْرِيهِ فَيَكُونُ اسْتِفْتَاءً أَمِيرِكِيًّا وَيَلْسُونِيًّا فَقَطُّ!

وَلَكِنَّ وَيَلْسُون كَانَ قَدْ وَعَدَ بِلِسِّ بِإِرْسَالِ لَجْنَةٍ، ضَارِبًا بِاِحْتِجَاجَاتِ
 لويْدِ جُورْجِ وَبِتَهْدِيدَاتِ كَلِيمَنْصُو عُرْضِ الْحَائِطِ! وَحَالًا، انْتَقَى وَيَلْسُونُ
 لَجْنَةً مِنْ قَرِيْبِهِ شَارْلَزْ كَرَايْنِ، وَهُوَ الْآخِرُ مُعَلِّمٌ مَدْرَسَةٍ سَابِقٌ، وَأَحَدُ
 كِبَارِ السَّاسَةِ الْأَمِيرِكِيِّيْنَ الَّذِينَ اسْتَضَحَبَهُمْ مَعَهُ إِلَى بَارِيْسِ، وَأَرْفَقَهُ
 بِالْمِسْتَرِ جُونِ كِنُخْ - وَلَعَلَّ هَذَا كَانَ هُوَ الْآخِرُ مُعَلِّمَ مَدْرَسَةٍ سَابِقًا -
 الْمُنْدُوبِ السِّيَاسِيِّ الْمُعَاوِنِ لِلرَّئِيْسِ وَيَلْسُونِ بِبَارِيْسِ وَقَالَ لَهُمَا:
 «أَذْهَبَا إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ وَاسْأَلَا أَهْلَهَا مَاذَا يُرِيدُونَ، وَأَيَّةَ دَوْلَةٍ يَطْلُبُونَهَا
 وَصِيَّةَ عَلَيْهِمْ، إِذَا كَانُوا يُرِيدُونَ وَصَايَا مَا!».

وَكَانَ وَيَلْسُونُ يُرِيدُ أَنْ يَضْمَنَ الْحُلْفَاءُ اسْتِقْرَارَ الْبُلْدَانِ الْخَارِجَةِ مِنْ
 السَّلْطَنَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، بِمَوْجِبِ احْتِلَالِ عَسْكَرِيٍّ وَسِيَاسِيٍّ لِقَوْتِ مَا.
 لَمْ يَكُنْ عِنْدَ وَيَلْسُونِ، فِي حَمَاسَتِهِ وَخِيَالَتِهِ التَّحْرُّرِيَّةِ، وَقَتٌّ يُضَيِّعُهُ،
 فَأَوْفَدَ لَجْنَتَهُ حَالًا إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي ١٠ حُزَيْرَانَ ١٩١٩.

لَجْنَةُ كَرَايْنِ مِنَ الْقُدْسِ إِلَى بَيْرُوتِ

كَانَ عَيْدًا كَبِيرًا فِي الْكَلِيَّةِ الْأَمِيرِكِيَّةِ.
 وَأَخَذَ الْأَهَالِي هُنَا وَفِي سُورِيَا، يَتَسَاءَلُونَ إِذَا كَانَ وَيَلْسُونُ بِإِرْسَالِهِ هَذِهِ
 اللَّجْنَةَ، يَوَدُّ أَنْ يَأْخُذَ لِأَمِيرِكَا الْوَصَايَةَ عَلَى هَذِهِ الْبُلْدَانِ.
 وَانْتَصَرَ بِلِسِّ بِإِرْسَالِ اللَّجْنَةِ، وَأُسْقِطَ فِي يَدِ شَانْتُورِ، وَسَارْلُوتِ، وَجَمِيعِ
 زَبَائِنِ فَرَنْسَا!

وَلَكِنَّ الْاِنتِصَارَ كَانَ قَصِيرَ الْأَمْدِ، وَلَمْ يَدُمْ رُغْبُ سَارْلُوتِ وَشَانْتُورِ طَوِيلًا.
 فَقَدْ ذَهَبَتِ اللَّجْنَةُ أَوَّلًا إِلَى الْقُدْسِ، حَيْثُ تَرَكَّتْ كَلِمَةَ الْإِنْكِلِيزِ تَعْلُو
 عَلَى كُلِّ كَلِمَةٍ، وَاکْتَفَتْ بِمَا سَمِعَتْ، وَلَمْ تَقُمْ بِاسْتِيفَتَاءِ جِدِّيٍّ. ثُمَّ

جاءت إلى بيروت على الرّحب والسّعة، حيث كان ميدانها أوسع وأكبر، وحيث كانت مهمتها صعبة، وحيث كانت الجامعة الأميركية وحواشيتها تنتظرها لتَهْلَلَ لها ولتنتصر على الجزويت والعازارين باستفتائها، وحيث كان الفرنسيون قد أعدوا العدة لهذا الاستفتاء، وحيث كان الفرنسيون قد أعدوا العدة عند معظم الأهالي لإفساد الأمر على اللّجنة!

في ذلك الحين، كان الشريف فيصل في باريس يفاوض الأربعة الكبار على إنشاء سوريا كبرى مستقلة حرة طليقة، على أن يكون للحلفاء فيها مركز ممتاز.

قبل سفره لباريس جمع مؤتمره السوري الشهير المؤلف من كبار الزعماء الوطنيين في سوريا وفلسطين والأردن وغيرها وبينهم بعض الموارنة والأرثوذكس من لبنان، واتخذ المؤتمر قراراً قبل أن تصل لجنه كراين إلى بيروت ودمشق يقول: «إذا كان لا بد من وصاية فأميركا أولاً، وإنكلترا ثانياً، أما فرنسا فلا تكون».

أما نحن فقد كنا في الجيبة

وكان الموارنة والكاثوليك في لبنان قد قالوا كلمتهم منذ البدء: فرنسا أولاً وآخرًا.

ولكن كان من الواجب في نظر الفرنسيين، وقد ظهر أن المستر كراين يهتم كثيراً بنتيجة الاستفتاء بلبنان، أن يتقدم الموارنة والكاثوليك وأن يقولوا له: فرنسا أولاً وآخرًا!

وعندئذ، كما استدعى نابليون في معركة واترلو، في آخر ساعة،

حَرَسَهُ لِيَقِفَ بِوَجْهِ الْإِنْكَسَارِ، اسْتَدْعَى الْفَرَنْسِيُّونَ الذَّهَبَ الَّذِي كَانُوا قَدْ جَاءُوا بِهِ فِي صَنَادِقِهِمْ.

بِطَبِيعَةِ الْحَالِ، كَانَ مِنَ الضَّرُورِيِّ يَوْمَ وُصُولِ كراينِ إِلَى بَيْرُوتَ أَنْ نُسَارِعَ إِلَى مُشَاهَدَتِهِ وَالتَّعَرُّفِ إِلَيْهِ.

وَنَذَكِّرُنَا عِنْدَمَا اسْتَطَعْنَا الْوُصُولَ إِلَيْهِ صَدِيقَنَا الْقَدِيمَ الْمُسْتَرَّ جَسْبَ، رَاعِي الْكَنِيسَةِ الْإِنْجِيلِيَّةِ سَابِقًا عَلَى زَحْلَةٍ، فَقَدْ كَانَ كراينِ يُشْبِهُهُ بِحَرَكَاتِهِ، وَخُصُوصًا بِ«أَحَادِيثِهِ الْبَارَابُولِيَّةِ»^(٣) الرَّمْزِيَّةِ ذَاتِ التَّعَابِيرِ الْعَامَّةِ الْمُسْتَعَارَةِ. فَتَشَارِلُزْ كراينِ هُوَ مِثَالٌ تَامٌّ لِلْقَسِّ الْبُرُوتِسْتَانْتِيِّ الْكِلَاسِيكِيِّ! كَانَ شارلز كراينِ يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ يَحْمِلُ رِسَالَةَ سَمَاوِيَّةٍ يَجِبُ عَلَيْهِ أَدَاؤُهَا، وَهِيَ رِسَالَةٌ تَحْرِيرِ هَذِهِ الشُّعُوبِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي صَوَّرَهَا رَئِيسُ الْجَامِعَةِ الْأَمِيرِكِيَّةِ لِلرَّئِيسِ وَيَلْسُونِ نِعَاجًا بَيَضَاءَ مُهَدَّدَةٍ بِأَنْ تَرَسُفَ قَرِيبًا فِي سَلَاسِلِ الْفَرَنْسِيِّينَ وَقِيُودِهِمُ الْحَدِيدِيَّةِ، وَأَخْصُهَا طَبْعًا قِيُودُ الْجَزُوبِ وَالْعَازَارِيِّينَ.

وَقَالَ شارلز كراينِ لَنَا بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي يَقْرَأُ فِيهَا مَزَامِيرَ دَاوُودَ:

«حَكِّمُوا ضَمِيرَكُمْ فِي هَذَا الْأَسْتِفْتَاءِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّعْبَ الْأَمِيرِكِيَّ الْحُرَّ يَنْتَظِرُكُمْ عَلَى مَفْرَقِ الطَّرِيقِ لِيَحْكُمَ لَكُمْ أَوْ عَلَيْكُمْ!». وَفِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ لِيُصُولِهِ، بَدَأَ اسْتِفْتَاءَهُ بِمَعْزِلٍ عَنِ السُّلْطَاتِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَاللُّبْنَانِيَّةِ الْحَاكِمَةِ، الَّتِي كَانَتْ تُحِيطُ لِحُجَّتِهِ بِالِاحْتِرَامِ وَالْعِنَايَةِ وَلِكِنَّهَا لَا تَعْتَرِفُ بِهَا وَلَا بِمُهْمَّتِهَا!

بَدَأَ كراينِ اسْتِفْتَاءَهُ بِدَعْوَةٍ وَجَّهَهَا لِلْأَهْلِينَ يَقُولُ لَهُمْ فِيهَا مَا مَعْنَاهُ: «أَنَا أَنْتَظِرُكُمْ جَمِيعًا، فَتَعَالَوْا وَادْخُلُوا فَرَحَ رَبِّكُمْ!». وَلَكِنَّ فَرَحَ رَبِّهِمْ

(٣) أَي قِصَصُ تُسْتَنْتَجِ مِنْهَا الْعِبَرُ.

لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ، بَلْ كَانَ عِنْدَ الْفَرَنْسِيِّينَ، وَكَانُوا قَدْ تَدَبَّرُوا أَمْرَهُ مَعَ الْكَثِيرِينَ مِنَ الزُّعَمَاءِ، وَجَعَلُوهُمْ يَطْلُبُونَ الْوِصَايَةَ الْفَرَنْسِيَّةَ. طَبَعًا، لَمْ يَطْلُبُوا هَذَا الطَّلَبَ مَجَانًّا، بَلْ دَفَعَ الْفَرَنْسِيُّونَ ثَمَنَهُ غَالِيًا، حَتَّى إِنَّ عُمَّالَهُمْ كَانُوا يَقِفُونَ عَلَى أَبْوَابِ دَارِ اسْتِفْتَاءِ لَجْنَةِ كراين، كَمَا يَقِفُ عُمَّالُ الْمُرَشَّحِينَ لِلانْتِخَابَاتِ النِّيَابِيَّةِ عَلَى أَبْوَابِ مَكَاتِبِ الاقْتِرَاعِ، يَشْتَرُونَ النَّاخِبِينَ لِمُرَشَّحِيهِمْ.

كَانَ الْإِنْكِلِيزُ يَشْتَغِلُونَ مِنْ بَعِيدٍ لِبَعِيدٍ!

عَمِلَ الْإِنْكِلِيزُ مِنْ جَانِبِهِمْ أَيْضًا، وَلَكِنْ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ وَمَسْتَوْرَةٍ، أَوَّلًا لِأَنَّهُ كَانَتْ تَوْجَدُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْفَرَنْسِيِّينَ اتِّفَاقَاتٌ رَسْمِيَّةٌ تَقُولُ بِتَرْكِ الْبِلَادِ لِلْفَرَنْسِيِّينَ، وَثَانِيًا، وَعَنْ حِكْمَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْهُمْ لَيْسَتْ مَوْجُودَةً عِنْدَ الْفَرَنْسِيِّينَ. كَانُوا يَعْرِفُونَ أَنَّ اسْتِفْتَاءَ كراين لَا يُؤْمِنُ بِهِ غَيْرُ كراين والرئيس ويلسون الذي أَرْسَلَهُ وَالْمُسْتَرِ بِلِسَّ الَّذِي طَلَبَهُ، فَلَنْ يَكُونَ لَهُ شَأْنٌ، مَهْمَا كَانَتْ نَتَائِجُهُ. أَمَّا الْفَرَنْسِيُّونَ، وَعَلَى الْأَخْصِ الْأَبِّ شانتور والأبِّ سارلوت، فَقَدْ كَانُوا يَحْسُبُونَ مِئَةَ حِسَابٍ لِهَذَا الاسْتِفْتَاءِ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ إِذَا جَاءَ لِجَانِبِهِمْ سَاعَدَهُمْ كَثِيرًا فِي الْوِصَايَةِ الَّتِي يَطْلُبُونَهَا عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ مِنْ مُؤْتَمَرِ الصُّلْحِ فِي فِرْسَاي.

لِذَلِكَ بَدَلُوا جَمِيعَ جُهُودِهِمْ فِي الْأَمْرِ، وَفَتَحُوا - كَمَا قُلْتُ سَابِقًا - جَمِيعَ صَنَادِقِهِمْ، وَكَانُوا فِي بَيْرُوتِ الْعَاصِمَةِ، قَدْ نَظَّمُوا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ عَرَائِضَ تَحْمِلِ عَشْرَاتِ الْأُلُوفِ مِنَ التَّوَاقِيعِ، وَأَكْثَرُهَا طَبَعًا تَوَاقِيعُ لِأَصْحَابِ لَهَا!

وَلَيْسَ أَهْوَنَ، كَمَا كَانَ صَدِيقُنَا وَعَشِيرُ الصُّبَا الْمَرْحُومُ أَبُو عَلِيٍّ سَلَامٍ

يَقُولُ، مِنْ أَنْ تَوْصِيَ الْحَفَّارَ عَلَى أَنْ يَصُبَّ لَكَ عِشْرِينَ أَلْفَ خَتْمٍ مِنَ
 الثُّحَاسِ لِعِشْرِينَ أَلْفَ اسْمٍ، تُخْتَمُ بِهَا الْعَرِيضَةُ!
 وَلَمْ يَتِمَّاكَ شَارْلزُ كراينَ نَفْسَهُ مِنَ الدَّهْشَةِ لَمَّا رَأَى هَذِهِ الْعَرَائِضَ
 وَطَبَعًا كَانَتْ أَكْثَرَ تَوَاقِيْعِهَا مُحَمَّدًا وَمَحْمُودًا وَعَلِيًّا وَحُسَيْنًا وَلَمَّا رَأَى
 مِائَاتِ الْوُجُهَاءِ وَالتُّجَّارِ وَكِبَارِ رِجَالِ الْأَعْمَالِ يَأْتُونَ إِلَيْهِ وَيَقُولُونَ لَهُ:
 «بَدْنَا فَرَنْسَا! بَدْنَا فَرَنْسَا!».

فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، كَانَ الْقَرَوِيُّونَ وَالرُّهْبَانُ مِنَ الْجَبَلِ يَحْتَشِدُونَ حَوْلَ
 مَكْتَبِ كراينَ يَهْزَجُونَ وَيَعْنُونَ الْأَغْنِيَةَ الْجَدِيدَةَ الَّتِي مَلَأَتْ الْقُرَى
 وَالدَّسَاكِرَ الْجَبَلِيَّةَ يَوْمَئِذٍ: «فَرَنْسَا أُمُّ الدُّنْيَا عُمُومَ اعْتَرَزُوا يَا بُنَانِيَّةَ».
 مِنْذُ السَّاعَةِ الْأُولَى، دَاخَ شَارْلزُ كراينَ، وَكَانَ جَمَاعَةُ الْإِنْكِلِيزِ وَالْأَمِيرِكَانِ
 قَدْ قَالُوا لَهُ فِي الْبِدَايَةِ إِنَّهُ لَنْ يَجِدَ أَحَدًا يَطْلُبُ فَرَنْسَا غَيْرَ بَطْرِيكَ
 الْمَوَارِنَةِ، وَالْمُطْرَانَ عَبْدَ وَشُكْرِي الْأَرْقَشِ وَالْبِيرَ قَشُوعَ وَيُوسُفَ عَوْدَةَ
 وَالرُّهْبَانَ وَالرَّاهِبَاتِ وَخَدَمَةَ الْكِنَائِسِ وَالْأَدِيرَةَ!

وَكَانُوا قَدْ أَكَّدُوا لَهُ أَنَّهُ لَا يُوْجَدُ مُسْلِمٌ وَاحِدٌ أَوْ دُرُزِيٌّ وَاحِدٌ يُرِيدُهَا!
 لِذَلِكَ فَوَجَّئَ كراينَ بِهَذِهِ الْعَرَائِضِ كَدَسَاتٍ كَدَسَاتٍ، وَمَعْظَمُ تَوَاقِيْعِهَا -
 كَمَا قُلْنَا - مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الدُّرُوزِ، وَمِنْهَا بَعْضُ الزُّعَمَاءِ وَالسَّاسَةِ،
 وَعَلَى الْأَخْصِ مِنَ الدُّرُوزِ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَاؤُوا بِأَنْفُسِهِمْ يَطْلُبُونَ فَرَنْسَا!
 وَمَجِيءُ بَعْضِ زُعَمَاءِ الدُّرُوزِ لَمْ يَدْهَشْ شَارْلزُ كراينَ فَقَطْ، بَلْ أَدَهَشَ
 الْإِنْكِلِيزَ بِأَجْمَعِهِمْ!

كُلُّ طَائِفَةٍ كَانَتْ مُعَلِّقَةً بِقُنْصَلِيَّتِهَا!

أَلَمْ تَكُنِ الْقُنْصَلِيَّةُ الْبَرِيطَانِيَّةُ قَبْلَ الْحَرْبِ، وَقَبْلَ فَضْلِ الْبُلْدَانِ الْعَرَبِيَّةِ
 عَنِ تُرْكِيَا، الْمَرْجِعَ الرَّئِيسِيَّ لِلدُّرُوزِ؟

أَلَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ عِنْدَمَا تَقَاسَمَتْ فِي بَدَايَةِ قِيَامِ الْمُتَصَرِّفِيَّةِ كُلِّ دَوْلَةٍ كُبْرَى مِنَ الدُّوَلِ السَّبْعِ الضَّامِنَةِ امْتِيَازَاتِ جَبَلِ لُبْنَانَ طَائِفَةً مِنْ طَوَائِفِهِ فَأَخَذَ الْفَرَنْسِيُّونَ الْمَوَارِنَةَ، وَصَارَتِ الْفُنْصَلِيَّةُ الْعَامَّةُ بَيْنَرُوتَ مَرْجِعَهُمْ وَصَاحِبَةَ الْأَمْرِ فِيهِمْ، وَأَخَذَ الْإِنْكَلِيزُ الدُّرُوزَ وَصَارَتْ فُنْصَلِيَّتُهُمْ الْعَامَّةُ بَيْنَرُوتَ وَإِسْبِرْ شُقَيْرَ تَرْجُمَانُهَا الْمَشْهُورُ مَرْجِعَهُمْ وَحُجَّتَهُمْ؟ أَوْلَمْ يَأْخُذِ الْقَيْصَرُ الرَّوسِيُّ الرَّومَ الْأَرْثُوذُكْسَ تَحْتَ حِمَايَتِهِ وَيَجْعَلَ فُنْصَلِيَّتَهُ الْعَامَّةَ بَيْنَرُوتَ بَيْنَهُمْ وَمَقَرَّهُمُ الْعَامَّ وَمَرْجِعَهُمُ الْأَسَاسِيَّ وَمَصِيرَهُمْ؟

وَنَحْنُ الْكَاثُولِيكُ، وَكُنَّا قَدْ وُضِعْنَا فِي هَذَا الْمُعْتَرِكِ، انْتَهَيْنَا بِطَلَبِ حِمَايَةِ الْفُنْصَلِيَّةِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ النَّمْسَاوِيَّةِ، الَّتِي فَتَحَتْ لَنَا ذِرَاعَيْهَا وَأَصْبَحَتْ مَرْجِعَنَا وَحَامِيَةَ دِيَارِنَا.

وَهُنَا يَجِبُ أَنْ نَعْتَرِفَ أَنَّ النَّمْسَا، فِي الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى، وَقَفَتْ بِجَانِبِنَا وَتَوَسَّطَتْ لَنَا لَدَى الْأَتْرَاكِ حَتَّى لَا يَفْسُوا عَلَيْنَا.

الفاجرُ أَكَلَّ مَالِ التَّاجِرِ!

هَكَذَا بَيْنَ ضَجَّةِ الْفَرَنْسِيِّينَ وَزَبَائِنِهِمْ، وَبَيْنَ رِصَانَةِ الْإِنْكَلِيزِ وَزَبَائِنِهِمْ، ضَاعَتِ الطَّاسَةُ عِنْدَ الْمِسْتَرِ كِرَايِنَ وَفَازَتْ فَرَنْسَا!

وَاسْتِكْمَالًا لِلْمَعْلُومَاتِ، لَا نُرِيدُ أَنْ نَنْسَى أَنَّ مُعْظَمَ الَّذِينَ اسْتَفْتَاهُمْ شَارْلزُ كِرَايِنَ مِنَ الْوُجْهَاءِ وَالتُّجَّارِ وَالزُّعْمَاءِ السِّيَاسِيِّينَ كَانُوا يَبْدَأُونَ أَمَامَهُ بِطَلَبِ أَمِيرِكَا وَصِيَّةٍ عَلَى الْبِلَادِ، يَفْعَلُونَ ذَلِكَ تَزَلُّفًا، مَعَ أَنَّ لَجَنَةَ الاسْتِفْتَاءِ كَانَتْ أَعْلَنْتْ بِشَتَّى الطَّرِيقِ وَعَلَى عِلْمٍ مِنَ الْعُمُومِ، أَنَّ أَمِيرِكَا خَارِجَةٌ عَنْ مَوْضُوعِ الْوِصَايَةِ، لَا تَقْبَلُهَا وَلَا تُرِيدُهَا، وَلَوْ أَجْمَعَ الْجَمِيعُ

عَلَى طَلَبِهَا فَهِيَ تَشْتَغَلُ فَقَطْ لَوَجْهِ اللَّهِ وَلِحُرِّيَةِ الشُّعُوبِ.
 إِنَّمَا، طَالَمَا يَجِبُ لِهَذِهِ الْبِلَادِ وَصَايَةُ، فَعَلَى الْأَهْلِيْنَ أَنْ يَطْلُبُوا فَرَنْسَا
 أَوْ إِنْكَلِتْرَا! وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ اللَّبْنَانِيُّونَ يَبْدَأُونَ أَمَامَ كراين بِطَلَبِ أَمِيرِكَا،
 طَبْعًا عَنْ مُجَامَلَةٍ وَتَقَرُّبٍ هُمَا مِنْ طَبِيعَتِنَا، فَيَقُولُونَ: «بَدْنَا أَمِيرِكَا»، ثُمَّ
 يُرَدُّفُونَ بِقَوْلِهِمْ: «وَإِذَا كَانَتْ أَمِيرِكَا لَا تُرِيدُ فَنَطْلُبُ فَرَنْسَا أَوْ إِنْكَلِتْرَا!».
 وَلَمْ يَطْلُ الْأَمْرُ مَعَ شارلز كراين بِبِيْرُوتَ، فَأَنْهَى فَجَاءَهُ اسْتِفْتَاءٌ فِيهَا،
 وَعَمِلَ حِسَابَهُ فَنَالَتْ فَرَنْسَا نِقَاطًا أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِنْ نِقَاطِ إِنْكَلِتْرَا! وَانْتَقَلَ
 بَعْدَ ذَلِكَ لِجَبَلِ لُبْنَانَ حَيْثُ كَانَ الْمَكْتُوبُ مَعْرُوفًا مِنْ عُنْوَانِهِ، وَحَيْثُ
 طَلَبَ الْمَوَارِنَةُ وَالْكَاثُولِيكُ وَاللَّاتِينُ فَرَنْسَا، وَطَلَبَتِ الْأَكْثَرِيَّةُ الْأَرْثُوذُكْسِيَّةُ
 إِنْكَلِتْرَا.

وَتَرَكَ كَثِيرُونَ مِنَ الدُّرُوزِ أَصْدِقَاءَهُمْ التَّارِيخِيِّينَ وَطَلَبُوا فَرَنْسَا. وَوَقَعَتِ
 انْقِسَامَاتٌ وَانْشِقَاقَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ فِي هَذَا الصِّدَدِ حَتَّى ضَمِنَ كُلُّ عَائِلَةٍ
 مِنَ الْعَائِلَاتِ الْكُبْرَى، فَانشَقَّ الْأَمْرَاءُ الْأَرْسَلَانِيُّونَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ،
 كَمَا انْشَقَّ الْمَشَايخُ الْجَنْبُلَاطِيُّونَ. وَاخْتَلَفَ الْأَخُ مَعَ أَخِيهِ: هَذَا طَلَبَ
 إِنْكَلِتْرَا وَذَاكَ طَلَبَ فَرَنْسَا!

الْوَجَاهَةُ عِنْدَ الْمِسْتَرِ كراين!

وَبَدَأَ شارلز كراين يَتَعَبُ مِنْ كَثْرَةِ مَا اسْتَقْبَلَ مِنَ النَّاسِ، فَكُلُّ وَاحِدٍ
 مِنَ الْأَهَالِي كَانَ يَعْتَبِرُ أَنَّ زيارَتَهُ لِكراين نَوْعٌ مِنَ الْوَجَاهَةِ، فَلِمَاذَا لَا
 يَكُونُ وَجِيهًا مِثْلَ غَيْرِهِ؟
 وَبَدَأَ شارلز كراين يَتَعَبُ أَيْضًا مِنَ التَّدْجِيلِ وَالْكَذِبِ وَالْوِشَايَاتِ وَتَبْيِضِ

الْوَجْهِ وَشَكْوَى الزُّعْمَاءِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ مِمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُ شَأْنٌ فِيهِ،
وَلَكِنْ مِمَّا كَانَ يَحْرِصُ اللَّبْنَانِيُّونَ دَوْمًا عَلَى عَمَلِهِ!

وَلَمَّا جَاءَ دَوْرُ الْجُنُوبِ اسْتَفْتَاهُ كراين مِنْ بَعِيدٍ لِبَعِيدٍ، وَكَانَ الشُّيْعَةُ
يَوْمَئِذٍ لَمْ يَنَالُوا الْمَكَانَةَ الاجْتِمَاعِيَّةَ وَالسِّيَاسِيَّةَ الَّتِي بَلَغَهَا بَعْدَ ذَلِكَ.
وَكَانُوا فِي أَيَّامِ الْأَثْرَاكِ تَقْرِيبًا مُبْعَدِينَ عَنِ الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ. فَقَدْ كَانَتْ
الْأَرِسْتُقْرَاطِيَّةُ السُّنِّيَّةُ حَتَّى ذَلِكَ الْوَقْتِ، بِتَأْثِيرِ تَرْكِيَا، لَا تُعْطِي لِلشُّيْعَةِ
الْمَكَانَةَ الْمُسَاوِيَةَ لَهَا فِي الْهَيْئَةِ الْوَطَنِيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ.

لَمَّا عَرَفَ الشُّيْعَةُ أَنَّ السُّنِّيَّينَ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ يُفْضِلُونَ إِنْكَلِتْرًا وَوَصَايَتَهَا،
طَلَبُوا تَقْرِيبًا بِأَجْمَعِهِمْ وَصَايَةَ فَرَنْسَا!

عِنْدَ هَذَا، وَجَدَ الْمِسْتَرُ بِلَسَّ وَأَصْدِقَاؤُهُ وَالْمِسْتَرُ كراين وَلَجْنَتُهُ أَنْفُسَهُمْ
فِي وَضْعٍ صَعْبٍ جِدًّا تُجَاهَ الْأَبِ شَانْتور وَالْأَبِ سَارلوت وَأَعْوَانِهِمَا!
كَانَ شَارلز كراين قَدْ أَجَلَ زيارَتَهُ لِلْأَقْضِيَةِ الْأَرْبَعَةِ (حَاضِبِيًّا وَرَاشِيَا
وَالْبِقَاعِ وَبَعْلَبَكَّ)، عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ هَذِهِ الْأَقْضِيَةَ تُشَكِّلُ أَكْبَرَ مُعْضَلَةَ
بَيْنَ الْفَرَنْسِيِّينَ وَبَيْنَ الْإِنْكَلِيزِ، وَحَلِيفِهِمُ الشَّرِيفِ فَيَصِلُ أَمِيرِ دِمَشْقِ،
وَكَانَ فَيَصِلُ قَدْ اسْتَبَقَ الْفَرَنْسِيِّينَ وَاحْتَلَّ الْأَقْضِيَةَ الْأَرْبَعَةَ قَبْلَ
وُصُولِهِمْ إِلَيْهَا.

وَفِي انْتِظَارِ سَفَرِهِ إِلَى الْأَقْضِيَةِ الْأَرْبَعَةِ، اسْتَمَعَ كراين إِلَى رَأْيِ
الطَّرَابُلُسِيِّينَ. وَكَانَتْ طَرَابُلُسُ الْمَدِينَةَ الْوَحِيدَةَ فِي الْمِنْطَقَةِ الْعَرَبِيَّةِ
الَّتِي قَالَتْ لِكراين:

«إِذَا كَانَ الْاسْتِقْلَالُ التَّامُّ الْمُطْلَقُ لِلْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ مُسْتَحِيلًا، فَنَحْنُ نَطْلُبُ
إِنْكَلِتْرًا، بَعْدَ أَمِيرِ كَا طَبْعًا!».

وَلَكِنْ طَلَبَ طَرَابُلُسُ جَاءَ مُتَأَخِّرًا جِدًّا، لِأَنَّ الْمَنَاطِقَ الْأُخْرَى فِي لُبْنَانَ

كَانَتْ قَدْ رَفَعَتْ، دُونَ اسْتِئْذَانٍ، وَقَبْلَ أَنْ يُقَرَّرَ مَجْلِسُ الْأَرْبَعَةِ الْكِبَارِ شَيْئًا، الرَّايَةَ الْفَرَنْسِيَّةَ عَلَى دُورِهَا وَمَعَاهِدِهَا وَأَذِيرَتِهَا وَأَنْدِيَّتِهَا.

الْأَفْضِيَّةُ الْأَرْبَعَةُ وَأَنَا!

وَهُنَا حَانَ الْوَقْتُ لِكَيْ أَتَكَلَّمَ عَنْ نَفْسِي قَلِيلًا، بِوَضْفِي مَثَلْتُ دَوْرًا كَبِيرًا مَعَ لَجْنَةِ شارلز كراين في الاستفتاء الذي جَرَى فِي الْأَفْضِيَّةِ الْأَرْبَعَةِ.

كَانَتْ لَجْنَةُ كراين قَدْ سَلَّمَتْ بِطَلَبِ الْوِصَايَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ بِيُورَتِ وَالْجَنُوبِ وَجَبَلِ لُبْنَانَ، وَإِنَّمَا كَانَ يَصْعُبُ عَلَيْهَا التَّسْلِيمُ بِطَلَبِ الْوِصَايَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ عَلَى الْأَفْضِيَّةِ الْأَرْبَعَةِ. وَأَدْرَكَ الْفَرَنْسِيُّونَ هَذِهِ النُّقْطَةَ، لِذَلِكَ عَقَدُوا الْعَزْمَ عَلَى بَدَلِ أَكْبَرَ مَجْهُودٍ مُمَكِّنٍ، لِكَيْ تُنَادِيَ الْأَفْضِيَّةُ الْأَرْبَعَةُ بِالْوِصَايَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ، بِأَيِّ شَكْلِ كَانَ!

مُرَّ بِطَرِيقِكَ عَلَى الْكَابِتِنِ مَاسِينِيونَ!

قَبْلَ سَفَرِ لَجْنَةِ كراين إِلَى الْأَفْضِيَّةِ الْأَرْبَعَةِ بِيَوْمَيْنِ، اسْتَدْعَانِي الْكَابِتِنِ دَامَ، الَّذِي خَلَفَ الْمَسِيو كُولِنْدِرَ فِي وَكَايَةِ الْمَقْوُوضِ السَّامِي جُورْجِ بِيكُو، وَمَا يَزَالُ فِي بِيُورَتِ كَثِيرُونَ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ الضَّابِطَ الشَّابَّ، الصَّبُوحَ الْوَجْهِ، الطَّرِيفَ الْكَلَامِ الَّذِي اسْتَطَاعَ بِالرَّغْمِ مِنْ حَدَاثَةِ سِنِّهِ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ بَلَغَ الثَّلَاثِينَ، احْتِلَالَ هَذَا الْمَرْكَزِ الْعَالَمِيِّ، وَاسْتِلَامَ مُقَدَّرَاتِ الْوِصَايَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ الْمَنْشُودَةِ، وَاسْتَلَمَ مَعَهَا طَبْعًا أَمْوَالَ الْمَكْتَبِ السِّيَاسِيِّ! وَكَانَ الْكَابِتِنِ دَامَ رَئِيسَ الْمَكْتَبِ السِّيَاسِيِّ الْمُبَاشِرِ، وَيَحْمِلُ تَذْكَرَةً بِيَضَاءٍ مِنْ وَزَارَةِ

الخارجية بباريس، يَسْتَطِيعُ بِوَاسِطَتِهَا صَرْفَ مَا يَشَاءُ مِنَ الْأَمْوَالِ فِي السُّبُلِ الَّتِي يَرْتَبِئُهَا، وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ مِقْدَارَهَا غَيْرُ الْقَلِيلِينَ مِنْ كِبَارِ مَوْظَفِي البَعْثَةِ الفَرَنْسِيَّةِ!

وَقَدْ اسْتَعْمَلَ عُمَلَاءُ «الْأَنْتَلِجَنسِ سُرفيس» وَسَائِلَهُمُ الخَاصَّةَ لِمَعْرِفَةِ قِيَمَةِ الْأَمْوَالِ الفَرَنْسِيَّةِ المُخَصَّصَةِ لِلدَّعَايَةِ فِي سَبِيلِ الوَصَايَةِ الفَرَنْسِيَّةِ عَلَى البِلَادِ، وَلَعَلَّ الْإِنْكَلِيزَ فَعَلُوا ذَلِكَ لِيُقَابِلُوا بِالمِثْلِ فِي سَبِيلِ الدَّعَايَةِ لِلْوَصَايَةِ لَهُمْ.

وَلَكِنَّ سِرَّ صَنَادِيقِ الكَابِتِينَ مَاسِينِيونَ ظَلَّ مَكْتُومًا عَنِ الْإِنْكَلِيزِ حَتَّى آخِرِ سَاعَةٍ، وَلَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ عَنْهُ شَيْئًا حَتَّى بَعْدَ ذَهَابِ لَجْنَةِ كِرَاينِ بِزَمَنِ طَوِيلٍ. عِنْدَمَا جَاءَ غُورُو مَفُوضًا سَامِيًا يُرَافِقُهُ المِسيو رُوبير دِي كِه، سَكْرَتِيرًا عَامًّا، فَتَنَظَرَ فِي حِسَابَاتِ البَعْثَةِ الفَرَنْسِيَّةِ لِسُورِيَا وَلُبْنَانَ يَوْمَ الاِحتِلَالِ، وَاتَّضَحَ أَنَّ الْأَمْوَالَ المَصْرُوقَةَ سِيَاسِيًا بَلَغَتْ خَمْسَةَ مَلَائِينَ جُنَيْهِ مِصْرِي. وَكَانَ سِعْرُ الجُنَيْهِ المِصْرِي يَوْمَئِذٍ يُسَاوِي لِيرَةً إِنْكَلِيزِيَّةً ذَهَبًا مَعَ قَرَشَيْنِ وَنِصْفِ القِرْشِ ذَهَبًا.

قُلْنَا، اسْتَدْعَانِي الكَابِتِينُ دَام، وَقَالَ لِي: «يَجِبُ أَنْ نَكْسِبَ اسْتِيفْتَاءَ اللِّجْنَةِ فِي الْأَفْضِيَةِ الْأَرْبَعَةِ بِأَيَّةِ طَرِيقَةٍ كَانَتْ، فَنَحْنُ نَعْلَقُ أَهْمِيَّةَ رَئِيسِيَّةً عَلَى ذَلِكَ. إِنَّ اللِّجْنَةَ اسْتَفْتَتْ حَتَّى الْآنَ المَنَاطِقَ الَّتِي نَحْتَلُّهَا نَحْنُ، فَافْتَرَضْتُ أَنَّنا نَحْنُ الَّذِينَ دَبَّرْنَا الْأَجُوبَةَ. وَلَكِنَّ هَذِهِ الْأَفْضِيَةَ الْأَرْبَعَةَ يَحْتَلُّهَا الشَّرِيفُ فَيَصِلُ بِالرَّغْمِ عَنَّا، وَنُرِيدُهَا أَنْ تَقُولَ لِكِرَاينِ إِنَّهَا تَطْلُبُ الوَصَايَةَ الفَرَنْسِيَّةَ، حَتَّى تَأْتِيَ نَتِيجَةُ الاسْتِيفْتَاءِ بِجَانِبِنَا رَغْمَ السُّلْطَاتِ الشَّرِيفِيَّةِ وَالْإِنْكَلِيزِ. وَبِمَا أَنَّ البَعْثَةَ الفَرَنْسِيَّةَ كَانَتْ قَدْ كَلَّفَتْكَ مِنْذُ السَّاعَةِ الْأُولَى لِلْعَمَلِ فِي الْأَفْضِيَةِ الْأَرْبَعَةِ، فَإِنَّهَا تُرِيدُكَ

الآن أَنْ تُتَابِعَ الْعَمَلَ فِيهَا». وَمَا إِنْ فَتَحْتُ فَمَيِّ لِلْكَلامِ، حَتَّى قاطَعَنِي بِقَوْلِهِ: «أَعْرِفُ تَمَامًا مَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ، فَلَا تُتَعِبْ نَفْسَكَ. إِنَّ الْحِكَايَةَ حِكَايَةُ مَالٍ أَوَّلًا لِذَلِكَ أَعَدَدْنَا الْمَبَالِغَ اللَّازِمَةَ، وَهِيَ حَاضِرَةٌ!». وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمُهْمَةَ كَانَتْ وَاللَّهِ صَعْبَةً، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ، فِي ذَلِكَ الْحِينِ، مِنْ صَعْبٍ عَلَى الْمَصَارِي.

وَكَانَ مَفْرُوضًا أَنْ أَسْأَلَ عَنْ مِقْدَارِ الْمَبَالِغِ الْمُخَصَّصَةِ لِتِلْكَ الْمُهْمَةِ، وَلَكِنِّي لَمْ أَسْأَلْ، فَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَطْلُبَ أَقْلَ مِمَّا يَكُونُ أَرْضَدَهُ الْكَابِتِينَ دَامَ فِي إِسْرَافِهِ الْمُدْهَشِ وَسَخَائِهِ الْمُفْرِطِ، وَفِي رَعْبَتِهِ فِي الْفَوْزِ عَلَى الْإِنْكِلِيزِ بِهَذِهِ الْمُنَافَسَةِ فِي الْأَفْضِيَةِ الْأَرْبَعَةِ. تِلْكَ الْمُبَارَزَةُ الَّتِي كَلَّفَنِي بِهَا وَلَمْ يَزِدْ شَيْئًا عَمَّا قَالَهُ بَعْدَ هَذَا سِوَى قَوْلِهِ لِي عِنْدَ الْبَابِ: «لَا أُرِيدُكَ أَنْ تَعُودَ إِلَيَّ هُنَا إِلَّا وَأَنْتَ نَاجِحٌ فِي مُهْمَتِكَ، فَقَدْ كَلَّفَنِي الْحُكُومَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ بِهَا وَجَعَلَتْهَا مُهْمَتِي الشَّخْصِيَّةَ، وَأَنَا مَا اعْتَدْتُ الْفَشْلَ!».

وَصَمَتَ قَلِيلًا ثُمَّ أَضَافَ:

«لَا تَنْسَ أَنْ تَمُرَّ بِطَرِيقِكَ عَلَى الْكَابِتِينَ مَاسِينِيُونَ!».

عِنْدَمَا أَصَابَنِي الْهَبْلُ

وَكَيْفَ أَنْسَى الْمُرُورَ عَلَى مَاسِينِيُونَ، خَازِنِدارِ الْبَعْثَةِ الْأَعْلَى وَعِنْدَهُ كُلُّ مَا كُنْتُ أَحْلُمُ بِهِ فِي زَمَنِ الصَّبَا؟
وَقَالَ لِي مَاسِينِيُونَ، وَقَدْ أَنْزَلَنِي عِنْدَهُ مَنزِلَةَ الصَّدِيقِ، حَيْثُ كَانَ يَطِيبُ لَهُ مُحَادَثَتِي وَاسْتِظْرَافُ أَقْوَالِي:
«يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْكَابِتِينَ دَامَ شَدِيدَ الثَّقَةِ بِكَ حَتَّى يُخَصَّصَ لَكَ هَذَا

الْمَبْلَغِ الْكَبِيرِ دُفْعَةً أُولَى تَقْبِضُهَا الْآنَ، وَدُفْعَةً ثَانِيَةً لِحِينِ الطَّلَبِ إِذَا مَا احْتَجَّتْ إِلَيْهَا».

وَفَتَحَ الصُّنْدُوقَ، وَبَدَأَ يُخْرِجُ مِنْهُ الْأَمْوَالَ، وَيَقُولُ: «قِيمَةُ الدُّفْعَةِ الْأُولَى خَمْسُونَ أَلْفَ لِيرَةٍ مِصْرِيَّةٍ»؛ وَحَالًا شَعَرْتُ بِرَأْسِي يَتَزَعَزَعُ، وَتَذَكَّرْتُ كَلْمَحَ الْبَصْرِ جَمِيعَ أَصْدِقَائِي الْكِبَارِ الْمُفْلِسِينَ، كَيْفَ سَيُصِيبُهُمُ الْهَبْلُ عِنْدَمَا يَعْرِفُونَ أَنَّي أَحْمَلُ خَمْسِينَ أَلْفَ جُنَيْهِ، أَنَا الَّذِي اضْطُرَرْتُ عِنْدَمَا اسْتَدْعَانِي الْمَسِيو كُولْنَدِرَ مِنْ زَحَلَةٍ فِي الْيَوْمِ الَّذِي وَصَلَ فِيهِ عَلَيَّ رَأْسُ الْبَعْثَةِ لِيَبْرُوتَ أَنْ أَسْتَدِينُ، أَوْ بِالْحَرِيِّ أَنْ أُسَلِّحَ الْمَرْحُومَ يَوْسُفَ الْبَرِيدِي وَجِيهَ زَحَلَةَ الْأَكْبَرِ، لِيرَةً عِثْمَانِيَّةً ذَهَبًا، وَكَانَ قَدْ مَضَى عَلَيَّ زَمَنٌ طَوِيلٌ لَمْ أَشَاهِدْ لَهَا وَجْهًا، وَتَذَكَّرْتُ كَيْفَ كَانَ أَهْلِي وَرِفَاقِي وَيَوْسُفَ الْبَرِيدِي عَلَيَّ رَأْسِهِمْ يَأْسَفُونَ فِي كُلِّ مُنَاسَبَةٍ، وَيَقُولُونَ عَنِّي: «يَا ضِيَاعَ الذِّكَاةِ وَالنَّبَاهَةِ بِهَذَا الْإِفْلَاسِ، وَحَيَاةِ الْخَلْطِ الَّتِي يَعْيشُهَا هَذَا الْفَتَى!».

وَأَعْتَرَفْتُ أَنَّي مَا وَعَيْتُ إِلَى نَفْسِي أَمَامَ مَاسِينِيونَ إِلَّا بَعْدَ بُرْهَةٍ، وَكَانَتْ أَكْدَاسُ أَوْرَاقِ الْمِئَةِ جُنَيْهِ قَدْ تَعَالَتْ أَمَامِي أَعْمِدَةً أَعْمِدَةً!

الرَّفِيقُ الَّذِي نَزَلَ عَلَيَّ الطَّرِيقَ

كَانَ عَلَيَّ أَنْ أُسَافِرَ حَالًا لِزَحَلَةٍ، إِذْ لَمْ يَبْقَ لِوُصُولِ اللَّجْنَةِ إِلَيْهَا غَيْرُ يَوْمَيْنِ.

وَلَكِنْ كَانَ عَلَيَّ أَيْضًا أَنْ «أَتَشَبَّرَقُ»^(٤) قَبْلَ ذَلِكَ، وَأَنْ أَشْتَرِيَ مَا يَخْطُرُ عَلَيَّ بِالْي.

(٤) محكيَّةٌ وتعني مصروف الجيب، المنجد في اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُعَاَصِرَةِ، دار المشرق، ٢٠٠٦.

وَكَانَ عَلَيَّ خُصُوصًا أَنْ أَقْلِبَ الْجُنَيْهَاتِ الْمِصْرِيَّةَ الْوَرَقَ إِلَى لِيرَاتٍ
ذَهَبِيَّةٍ، إِذْ إِنَّ مَلِحِمَ قَاسِمٍ فِي قَرْيَةِ حُورِ تَعْلَا، وَمُحَمَّدَ شَمْدِينَ دَنْدَشَ
عَلَى الْعَاصِي وَإِبْرَاهِيمَ شَمَصَ وَزُمَلَاءَهُ زُعَمَاءَ الْعَشَائِرِ الْحَمَادِيَّةِ فِي
غَرْبِي بَعْلَبَكَّ وَجِبَالِ الْهَرْمَلِ - وَوُجُوهَ الْبِقَاعِ وَعَلَى الْأَخْصِ مَا وَرَاءَ
النَّهْرِ وَالْقُرَى السَّحِيقَةَ مِثْلَ النَّبِيِّ عُثْمَانَ وَالْمَرْجِ وَسُحْمَرَ وَيُحْمَرَ، لَا
يَعْتَرِفُونَ بِاللِّيَرَاتِ الْوَرَقِ!

وَعِنْدَمَا هَمَمْتُ بِرُكُوبِ السَّيَّارَةِ الَّتِي كَانَتْ الْبَعْنَةُ قَدْ وَصَعَتْهَا نَحْتًا
تَصْرُفِي، إِذْ بِسِكْرَتِيرِ الْكَابِتِينَ دَامَ يَفْتَرِبُ مِنِّي وَيَقُولُ:
«لَقَدْ اسْتَحْسَنَ الْكَابِتَنَ دَامَ أَنْ يُرَافِقَكَ سَلِيمَانَ بَكَ كَنْعَانَ، عَضُو
مَجْلِسِ الْإِدَارَةِ الْمَارُونِيِّ فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ، فَلَهُ فِي الْبِقَاعِ الْجُنُوبِيِّ
وَالْغَرْبِيِّ، وَفِي بَعْضِ قُرَى رَاشِيًّا أَصْدِقَاءَ وَزُعَامَةً، وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يُسَاعِدَكَ
فِي مُهِمَّتِكَ، فَمُرَّ عَلَيْهِ فِي لُوكَانْدَةَ أَمِيرَكَ عَلَى الْبُرْجِ، حَيْثُ يَنْتَظِرُكَ
وَخُذْهُ مَعَكَ!».

هَلْ كَانَ فِي اسْتِطَاعَتِي إِظْهَارُ الْاِمْتِعَاضِ أَمَامَ هَذِهِ الْمُفَاجَأَةِ؟ لَا، فَالْأَمْرُ
كَانَ لِمَنْ لَهُ الْأَمْرُ، أَفَنِدِم!
وَكَانَ الْفَرْقُ كَبِيرًا بَيْنَ مُرُورِي عَلَى الْكَابِتِينَ مَاسِينِيُونَ، وَبَيْنَ مُرُورِي
عَلَى سَلِيمَانَ كَنْعَانَ.

وَهُنَا لَا أَتَكَلَّمُ عَمَّا يُصِيبُ أَيَّ رَجُلٍ مُعْتَادٍ عَلَى الْإِفْلَاسِ الدَّائِمِ، عِنْدَمَا
يُصْبِحُ فِي جُيُوبِهِ خَمْسُونَ أَلْفَ جُنَيْهِ، وَلَهُ بَعْضُ الْحُرِّيَّةِ لِلتَّصْرُفِ
بِهَا.

يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ذَا عَقْلٍ رَاجِحٍ، أَوْ دُونَ عَقْلٍ بِالْمَرَّةِ، هَذَا إِذَا لَمْ يَشْعُرْ
بِضْيَاعِ تَوَازُنِهِ إِلَى حِينٍ!

وَدَهَشْتُ كَثِيرًا لَمَّا شَعَرْتُ أَنَّ هَذِهِ الرَّحْلَةَ لَمْ تَكُنْ تَرُوقُ كَثِيرًا

لِصَدِيقِي سَلِيمَانَ بَكَ كِنَعَانَ، فَهُوَ مَا كَادَ يَرْكَبُ السَّيَّارَةَ وَتَتَجَاوَزُ فُرْنَ الشُّبَّاءِ، حَتَّى قَالَ لِي:

«مَا لَهُمْ وَمَا لِي؟ أَنَا رَجُلٌ تَعْبَانُ، وَكَثِيرُ الْأَشْغَالِ، وَكَانَ يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يَسْتَعْنُوا عَنِّي!».

حَتَّمَا كَانَ هُنَاكَ سَبَبٌ آخَرٌ، إِذْ إِنَّ سُلَيْمَانَ بَكَ كِنَعَانَ^(٥)، عَلَى غِرَارِ ابْنِهِ الْحَبِيبِ مَارُونَ، كَانَ لَا يَتَعَبُ، وَكَانَتْ صِحَّتُهُ مِثْلَ الصَّخْرِ! لِمَاذَا إِذَنْ لَا يُرِيدُ هَذِهِ الرَّحْلَةَ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ عَرَفَ أَنَّ هُنَاكَ أَمْوَالًا طَائِلَةً يُمَكِّنُهُ أَنْ يَعْرِفَ مِنْهَا؟

وَلَمْ أَقُلْ إِنَّ الْفَرَنْسِيِّينَ مُخْطِئُونَ فِي افْتِرَاضِهِمْ مِنْ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ فِي تِلْكَ الرَّحْلَةِ أَنْ يَجِدَ أَصْدِقَاءَ وَرُعَمَاءَ بَيْنَ أَهَالِي جُنُوبِي وَعَرَبِي الْبِقَاعِ يَتَّفِقُونَ مَعَهُ وَيُضْغُونَ إِلَيْهِ.

كَلَّا، لَمْ أَقُلْ لَهُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّا عِنْدَمَا وَصَلْنَا لِصَوْفَرَ وَنَزَلْنَا إِلَى حَدِيقَةِ الْفُنْدُقِ نَشْرَبُ الْقَهْوَةَ، وَحَيْثُ كَانَ بَعْضُ كِبَارِ أَصْدِقَاءِ سُلَيْمَانَ بَكَ يَجْلِسُونَ، يَتَنَادَمُونَ وَيَسْتَعِدُّونَ لِلْعَبَةِ بِوَكْرٍ لَا أَوَّلَ لَهَا وَلَا آخِرَ، رَأَيْتُ سُلَيْمَانَ كِنَعَانَ يَنْظُرُ بِقَلْبِي نَحْوَ أَوْلِيئِكَ الْأَصْدِقَاءِ، فَقُلْتُ لَهُ:

«بِالْحَقِيقَةِ أَرَى أَنَّكَ تَعْبُ، وَأَنَّ هَذِهِ الرَّحْلَةَ قَدْ لَا تَلَائِمَ صِحَّتِكَ وَفِيهَا حَرَكَاتٌ كَثِيرَةٌ وَفِيهَا بَعْضُ الْأَخْطَارِ».

فَأَجَابَ حَالًا: «أَقُولُ لَكَ الْحَقَّ، إِنَّنِي أَفْضَلُ أَنْ أَبْقَى هُنَا وَإِذَا سَأَلَكَ الْفَرَنْسِيُّونَ، فَقُلْ لَهُمْ إِنَّ الْحُمَى أَصَابَتْنِي، فَاضْطُرْتُ أَنْ الْأَزِمَ الْفِرَاشَ فِي الْفُنْدُقِ!».

لَقَدْ كَانَ سَلِيمَانَ بَكَ يَوْمَئِذٍ مَوْضِعَ ثِقَةِ الْفَرَنْسِيِّينَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُضْمِرُ فِي نَفْسِهِ شَيْئًا آخَرَ. فَبَعْدَ مُدَّةٍ قَصِيرَةٍ، تَرَكَهُمْ وَحَاوَلَ مَعَ أَكْثَرِ أَعْضَاءِ

(٥) عضو مجلس الإدارة المارونية.

مَجْلِسِ الْإِدَارَةِ الدَّهَابِ إِلَى الشَّرِيفِ فَيَصِلُ فِي دِمَشْقَ، لِعَقْدِ اتِّفَاقٍ
مَعَهُ عَلَى اسْتِقْلَالِ لُبْنَانَ بِالتَّعَاوُنِ مَعَ سُورِيَا، بَدَلًا مِنْ فَرَنْسَا.
وَأَقْنَعْتُ صَدِيقِي سَلِيمَانَ بِكَ بَعْدَ إِحْسَاحٍ شَدِيدٍ، أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ لَهُ
«خِرْجُ رَاحَةٍ»^(٦) عَنِ هَذِهِ الرُّحْلَةِ، يَكُونُ مِنْ قِيَمَتِهِ وَمَكَانَتِهِ الْكَبِيرَتَيْنِ،
وَوَضَعْتُ أَمَامَهُ الْحَقِيبَةَ، وَقُلْتُ لَهُ: «خُذْ مَا تَشَاءُ!».
هُنَا يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَعْتَرِفَ وَأُعْلِنَ أَنَّ سَلِيمَانَ بِكَ أَظْهَرَ قَنَاعَةً مُدْهِشَةً
لَمْ تَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ مُطْلَقًا!

وَأَنَا الْآخِرُ كُنْتُ وَجِيهًا كَبِيرًا!

وَهَكَذَا بَدَلًا مِنْ أَنْ يَذْهَبَ مَعِي يَلْعَبُ لُغْبَةَ كَرَايِنَ، دَخَلَ مَعَ أَصْدِقَائِهِ
إِلَى صَالَةِ فُنْدُقِ صُوفَرَ وَجَلَسَ يَلْعَبُ لُغْبَةَ الْبُوكِرِ وَعَرَفْتُ بَعْدَ ذَلِكَ
أَنَّ «الْبَارِتِيَّةَ» دَامَتْ لِيَلْتَيْنِ مُتَوَالِيَتَيْنِ، خَسِرَ فِيهَا سَلِيمَانَ بِكَ الْخِرْجَ
رَاحَ الْمَعْلُومِ...

رَكِبْتُ السَّيَّارَةَ مِنْ فُنْدُقِ صُوفَرَ مُتَّجِهًا نَحْوَ زَحْلَةَ. وَعَلَى الطَّرِيقِ
تَذَكَّرْتُ أَنَّي أَنَا الْآخِرُ أَسْتَحِقُّ «خِرْجَ رَاحٍ». وَتَذَكَّرْتُ أَنَّ الْمَالَ الَّذِي
أَحْمِلُهُ مَعَدٌّ لِإِقْنَاعِ وَجْهَاءِ الْأَفْضِيَةِ الْأَرْبَعَةِ بِوُجُوبِ الْاِفْتِرَاعِ أَمَامَ شَارِلز
كَرَايِنَ لِلْوَصَايَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ. وَلَكِنْ، أَلَسْتُ أَنَا الْآخِرُ وَجِيهًا مِنْ هَؤُلَاءِ
الْوَجْهَاءِ؟

وَأَخَذْتُ وَجَاهَتِي تَكْبُرُ رُؤْيِدًا رُؤْيِدًا، وَتَكْبُرُ مَعَهَا أَطْمَاعِي طَوَّلَ
الطَّرِيقِ!

وَكُنْتُ كُلَّمَا شَعَرْتُ بِوَجَاهَتِي تَكْبُرُ، أَتَنَاوَلُ كَمَشَةً مِنَ الْحَقِيبَةِ وَأَضَعُهَا

(٦) خِرْجُ رَاحَةٍ أَوْ خِرَاجٍ رَاحٍ: مَكَافَأَةٌ. الْبَخْشِيْشُ، مِنْ مَحْكِيَّاتِ إِسْكَندَرِ.

بِحَيْبِي. وَمَا إِنِّ وَصَلْتُ إِلَى زَحَلَةٍ، إِلَّا وَكَانَ مَبْلَغُ كَبِيرٍ، يَتَجَاوَزُ عَشْرَ
الْخَمْسِينَ أَلْفَ لِيْرَةٍ، قَدْ انْتَقَلَ إِلَى جَيْبِي وَذَلِكَ لِإِثْبَاتِ وَجَاهَتِي
الْكُبْرَى أَوْلًا، ثُمَّ لِإِثْبَاتِ حَقِّي بِخُرْجِ رَاحِ أَكْبَرَ مِنْ خُرْجِ رَاحِ سِوَايَ،
يَوْضُفِي مَوْفَدَ الْكَابِتِينَ دَامَ الْأَصِيلُ إِلَى الْأَفْضِيَةِ الْأَرْبَعَةِ!

كراين من جهةٍ والذهبُ من جهةٍ أُخرى

كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَجْعَلَ الْأَكْثَرِيَّةَ فِي تِلْكَ الْأَفْضِيَةِ تُصَوِّتُ لِفَرَنْسَا.
وَلَكِنْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى اكْتِسَابِ أَهْلِ الْأَفْضِيَةِ لِلْوَصَايَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ مَعَ
كُلِّ مَا تَدَبَّرَهُ الْإِنْكَلِيزُ وَالشَّرِيفُ مِنْ مَصَاعِبَ لَنَا؟
قُلْتُ فِي نَفْسِي: فِي بَيْرُوتَ كَمَا فِي الْأَفْضِيَةِ الْأَرْبَعَةِ.

بَعْدَ تَجَارِبَ عَدِيدَةٍ تَعَلَّمْنَا فِي بَيْرُوتَ أَنَّ نَكْتَسِبَ الْكِبَارَ وَالصَّغَارَ عَنْ
طَرِيقِ الْقَبْضَايَاتِ. هَذِهِ الطَّرِيقَةُ نَجَحَتْ مَعَنَا لَمَّا أَرَدْنَا جَعَلَ الدُّعَاةَ
يَطْلُبُونَ فَرَنْسَا. وَتَمَّ ذَلِكَ قَبْلَ مَجِيءِ لَجْنَةِ كراينَ، وَبَعْدَ مَجِيئِهَا. وَهِيَ
طَرِيقَةُ يُمَكِّنُ - كَمَا بَرَهَنْتِ الْأَيَّامُ وَالْأَحْدَاثُ - تَطْبِيقُهَا حِينَ تَجِدُ
السِّيَاسَةَ نَفْسَهَا مُضْطَّرَّةً لِإِقْنَاعِ الزُّعَمَاءِ بِالْعَمَلِ لَهَا.

كَانَ الْفَرَنْسِيُّونَ قَدْ جَرَّبُوا فِي الْبِدَايَةِ كَسْبَ الزُّعَمَاءِ السِّيَاسِيِّينَ
مُبَاشَرَةً ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهَمْ يَكْسِبُونَ بِذَلِكَ أَنْصَارَ هَؤُلَاءِ الزُّعَمَاءِ أَيْضًا،
كَانَ ذَلِكَ عِنْدَمَا طَلَبُوا مِنَ الزُّعَمَاءِ - بَعْدَ أَنْ اسْتَرْضَوْهُمْ بِطَرِيقَةِ
«حُدِّ وَبَارِكْ» - وَضَعِ الْعَرَائِضِ بِطَلْبِ الْحِمَايَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ - فَأَخَذَ
الزُّعَمَاءُ وَبَارَكُوا - وَلَكِنَّهَمْ لَمْ يَفْعَلُوا شَيْئًا، أَوْ بِالْحَرِيِّ لَمْ يَسْتَطِيعُوا
أَنْ يَفْعَلُوا شَيْئًا، إِذْ تَمَرَّدَ عَلَيْهِمْ قَبْضَايَاتُهُمْ وَزَلْمُهُمْ وَرَاحُوا يَقُولُونَ
عَكْسَ قَوْلِهِمْ، وَيَتَّهَمُونَهُمْ بِأَنَّهُمْ بَاعَوْهُمْ لِلْفَرَنْسِيِّينَ وَاسْتَأْثَرُوا
بِالثَّمَنِ!

وَقَدْ سَبَقَ لِي، قَبْلَ وُصُولِ بَعْثَةِ كراين، أَنْ اتَّبَعْتُ الْأُسْلُوبَ ذَاتَهُ مَعَ بَعْضِ الزُّعَمَاءِ الْبَارِزِينَ فِي الْأَقْضِيَةِ الْأَرْبَعَةِ - بِنَاءً عَلَى إِشَارَةِ السُّلْطَاتِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَمَصْلَحَةِ الاسْتِعْلَامَاتِ - فَتَصَرَّفَ هَؤُلَاءِ تَصَرُّفَ ذَاكَ الَّذِي شَرِبَ مِنَ الْبُئْرِ وَرَمَى بِهَا حَجَرًا.

أَخَذُوا الْمَصَارِي لِيُعْطُوا رِجَالَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُعْطُوا أَحَدًا...

إِنَّمَا، أَعْطُوا الْكَثِيرَ لِأَشْخَاصٍ لَا وُجُودَ لَهُمْ فِي هَذَا الْعَالَمِ، كَمَا جَرَى مَثَلًا مَعَ زَعِيمِ زَحْلِي كَبِيرٍ عَرَضَ عَلَى الْفَرَنْسِيِّينَ خِدْمَاتِهِ الْجَلِيلَةَ الْعَالِيَةَ، مُؤَكِّدًا أَنَّهُ يَمْلِكُ عَدَدًا مُحْتَرَمًا مِنَ الْأَهْلِينَ فِي رِيَاقِ وَالْقُرَى الْمُجَاوِرَةِ لَهَا، وَهُمْ مُسْتَعِدُّونَ لِمُمَاشَاةِ الدَّعَايَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ إِلَى النِّهَائَةِ وَقَبْضِ مَبْلَغًا كَبِيرًا لِيُوزَعَهُ - حَسَبَ زَعْمِهِ - عَلَى أَهَالِي تِلْكَ الْقُرَى.

وَكَانَ حَضْرَتُهُ رَجُلًا كَبِيرًا، لَهُ أَكْثَرُ أَمْلَاكِ بَعْضِ تِلْكَ الْقُرَى، وَيَظُنُّهُ النَّاسُ زَعِيمًا مُطَاعًا، فَإِذَا بِهِ يَتَضَخُّ بَعْدَ حِينٍ أَنَّهُ أَكَلَ الطُّعْمَ وَتَرَكَ الصَّنَارَةَ...

ظَهَرَ ذَلِكَ وَقَتِ ارْتَابَتِ الْجِهَاتُ الْمُخْتَصَّةُ بِأَمْرِهِ، فَأَمَرَتْ بِفَحْصِ جَدْوَلِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي ادَّعَى أَنَّهُ وَزَعَ الْمَالَ عَلَى أَصْحَابِهَا فَوُجِدَ أَنَّ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِهِمْ تَرَكَوا هَذَا الْعَالَمَ مِنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ وَلَمْ يَنْتَظِرُوا مَجِيءَ الْفَرَنْسِيِّينَ لِهَذِهِ الْبِلَادِ لِيَقْبِضُوا!

وَطَبَعًا سَكَّتِ الْفَرَنْسِيُّونَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْاِخْتِلَاسَاتِ وَلَكِنَّهُمْ تَعَلَّمُوا - وَتَعَلَّمْتُ أَنَا مَعَهُمْ - أَلَّا نَأْمَنَ لِلْوُجْهَاءِ وَالزُّعَمَاءِ الْمَحَلِّيِّينَ كَثِيرًا، فَهُمْ مَا صَارُوا وَجْهَاءَ وَزُعَمَاءَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الزَّعَامَةَ عَلَيْهِمْ. مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ تَلَقَّنْتُ عِبْرَةً، لَمْ أَنْسَهَا وَأَنَا فِي طَرِيقِي إِلَى الْأَقْضِيَةِ الْأَرْبَعَةِ...

أَصْدِقَائِي أَهْلُ السَّيْفِ وَالتُّرْسِ...

كَانَ أَوَّلُ مَا فَعَلْتُهُ عِنْدَ وُصُولِي لِلأَقْضِيَةِ الأَرْبَعَةِ أَنْ اتَّصَلْتُ بِطَرِيقَةٍ خَفِيَّةٍ جِدًّا، وَفِي ظِلَامِ اللَّيْلِ، مَعَ قَبْضَايَاتِ تِلْكَ المِنْطَقَةِ المَعْرُوفِينَ بِأَنَّهُمْ حَمَلَةُ السُّيُوفِ وَالبَنَادِقِ، أَوْلِيكَ الَّذِينَ يَخَافُهُمْ زُعْمَاؤُهُمْ وَيُدَارُونَ جَانِبَهُمْ، وَلَا يَجْسُرُونَ عَلَى إِغْضَابِهِمْ، لِئَلَّا يَنْقَلِبُوا عَلَيْهِمْ فَتَذْهَبَ زَعَامَتُهُمْ وَوَجَاهَتُهُمْ مَعَ الرِّيحِ.

دَعَوْتُ هَؤُلَاءِ وَعَقَدْتُ مَعَهُمْ «بَازَارًا»؛ وَكَانَ البَازَارُ فِي غَايَةِ الصَّدْقِ وَالإِنصَافِ: هُمْ يَمْشُونَ مَعَ فَرَنْسَا أَمَامَ لَجْنَةِ كَرَاينَ، وَأَنَا أَدْفَعُ لَهُمْ.

عَلَى أَنَّي كُنْتُ أَكْرَمَ مِنْهُمْ، فَأَعْطَيْتُ كُلًّا مِنْهُمْ سُلْفَةً، كَانُوا وَلَا شَكَّ بِحَاجَةٍ قُضَوِي لَهَا.

وَفَتَّشْتُ بَيْنَ العِشَائِرِ فِي بِلَادِ بَعْلَبَكْ فَوَجَدْتُ حَالًا الطَّلَبِ. جَاءَنِي أَوْلِيكَ الَّذِينَ أَخَذْتُ أَسْمِيَهُمْ بِزُعْمَاءَ وَوُجَهَاءَ مِنْ أَهْلِ السَّيْفِ وَالتُّرْسِ الَّذِينَ يَهَابُهُمُ النَّاسُ وَيَحْسُبُونَ حِسَابَهُمْ، وَالَّذِينَ يَتَحَكَّمُونَ بِزُعْمَائِهِمْ وَوُجَهَائِهِمْ كَمَا يُرِيدُونَ.

فِي اليَوْمِ الثَّانِي وَصَلَ كَرَاينَ لِرَحْلَةٍ. وَلَمْ يَحْتَجْ هُنَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ لِلِكَلَامِ وَالسَّلَامِ، إِذْ تَجَمَّهَرُوا حُشُودًا كَبِيرَةً، وَحَمَلُوا الرِّيَاطِ الفَرَنْسِيَّةَ وَمَشَوْا لِيَسْتَقْبِلُوهُ بِهَا، إِلا نَفَرًا مِنَ الأُرْتُوذُكْسِ الَّذِينَ كَانُوا يُمَاشُونَ الشَّرِيفَ فَيَصَلُّوا، فَهَؤُلَاءِ زَارُوا كَرَاينَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَعَلَى رَأْسِهِمُ اليَاسُ بِكَ بِحَمْدُونِي العَضُوِّ بِالمُؤْتَمَرِ السُّورِيِّ يَوْمَئِذٍ، وَطَلَبُوا الشَّرِيفَ فَيَصَلُّوا.

وَكَانَ كَرَاينَ وَرِفَاقُهُ يُرِيدُونَ قِضَاءَ لِيَلْتِهِمْ بِرَحْلَةٍ، فَلَمَّا شَاهَدُوا ذَلِكَ المَلْفَى الغَرِيبَ، بِدُونِ سَلَامٍ وَلَا كَلَامٍ، تَرَكَوْهَا حَالًا وَاتَّجَهُوا صَوْبَ بِلَادِ

بَعَلْبَكَ وَهُنَاكَ قَالَ لَهُمْ مُحَمَّدٌ شَمْدِينَ دَنْدَشَ: فَرَنَسَا أُمَّ الدُّنْيَا عُمُومًا!
وَكَانَ جَبَّارًا بَيْنَ الرُّجَالِ، يَحْمِلُ دَوْمًا سَيْفًا صَقِيلًا يَزِنُ أَرْبَعَةَ أَرْطَالٍ!

مار يوحنا يرثه مُحَمَّد شمدين!

وَكَانَ مِنْ خَصَائِصِهِ الْأَسَاسِيَّةِ وَمِيزَاتِهِ الْكُبْرَى الَّتِي أَدْخَلْتَهُ فِي التَّارِيخِ،
أَنَّهُ جَعَلَ دَيْرَ مَارِ يُوْحَنَّا مَارُونَ، الْقَائِمَ فِي وَسْطِ الْجَبَلِ، عَلَى رَأْسِ
نَبْعِ الْعَاصِي فِي أَسْفَلِ جَبَلِ الْهَرْمَلِ، مَقَرًّا عَامًّا لَهُ يَحْتَلُّهُ فِي ذَلِكَ
الْوَقْتِ كَمَا اخْتَلَّهُ وَالِدُهُ وَوَالِدُ وَالِدِهِ قَبْلَهُ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ بَضْعِ غُرْفِ
مَنْقُورَةٍ بِالصَّخْرِ فِي مُنْتَصَفِ جَبَلٍ عَالٍ، يَقُومُ بِهَيْئَةِ جِدَارِ جَبَّارٍ لَا
يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلَيْهِ إِلَّا بِسَلَالِمٍ خَشَبِيَّةٍ طَوِيلَةٍ جِدًّا تَقُودُ الصَّاعِدَ إِلَى
تِلْكَ الْكُهُوفِ الصَّغِيرَةِ الضَّيِّقَةِ الْمَنْقُورَةِ بِالصَّخْرِ، كَمَا قُلْنَا، وَالَّتِي تُشْبِهُ
بِالْأُخْرَى الْمَغَائِرِ، وَقَدْ كَانَتْ قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ دَيْرًا، كُھُوفًا لَا يَصِلُ إِلَيْهَا
غَيْرُ الْمَاعِزِ!

وَكَانَ عَلَيَّ مُحَمَّدٌ شَمْدِينَ وَرَبْعُهُ يَلْجَأُونَ إِلَى تِلْكَ الْمَغَاوِرِ، عِنْدَمَا
يُطَارِدُهُمْ مُطَارِدٌ، وَيَسْحَبُونَ بَعْدَ ذَلِكَ السُّلْمَ الطَّوِيلَ، فَلَا يَبْقَى سَبِيلٌ
لِلْوُصُولِ إِلَيْهِمْ، حَتَّى وَلَا عَسَاكِرُ الْأَتْرَاكِ، الَّذِينَ كَانُوا يُجْرُونَ الْحَمَلَاتِ
الْمُتَتَابِعَةَ عَلَى الدَّنَادِشَةِ، فَيَلْجَأُ هَؤُلَاءِ لِدَيْرِ مَارِ يُوْحَنَّا مَارُونَ صَدِيقِهِمْ،
فَيَعْجِزُ الْجَيْشُ الْمُظْفَرُّ عَنِ الْوُصُولِ إِلَيْهِمْ!

المِسْتَر كراين عِنْدَ مَارِ يُوْحَنَّا مَارُونَ

وَهُنَا يَجِبُ أَنْ نَذْكَرَ عَلَى سَبِيلِ الطَّرَافَةِ، مَا قَالَهُ مُحَمَّدٌ شَمْدِينَ
لِلْمِسْتَر كراين بِهَذَا الصَّدَدِ!
لَا نَنْسَى أَنَّ شَارْلز كراين أَمِيرِكِي قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَيُحِبُّ الْأَشْيَاءَ

المُسْتَعْرَبَةَ، والمُعَامَرَاتِ الطَّرِيفَةَ. لَقَدْ رَأَيْنَاهُ يَقِفُ مَدْهُوشًا فِي وَسَطِ
سَاحَةِ مَدِينَةِ بَعْلَبَكَّ، وَهُوَ يُشَاهِدُ عَمَلًا مُخِيفًا يَشُقُّ طَرِيقَهُ بِسَيْفِهِ
بَيْنَ الْجَمَاهِيرِ الَّتِي اجْتَمَعَتْ حَوْلَ اللَّجْنَةِ، يُرَافِقُهُ بِضَعَهُ فُرْسَانٍ مِنْ
جَمَاعَتِهِ مُسَلِّحِينَ مِنَ الرَّأْسِ حَتَّى الْقَدَمَيْنِ!

وَكَانَ مُحَمَّدٌ شَمْدِينَ يُلَوِّحُ بِسَيْفِهِ بَيْنَ تِلْكَ الْجَمَاهِيرِ مُهَدِّدًا مَنْ لَا
يَقُولُ قَوْلَهُ، وَيَمْشِي بِرَأْيِهِ؛ وَلَمَّا وَصَلَ مَعَ رَبْعِهِ أَمَامَ الْأَمِيرِكِيِّ، وَطَلَبَ
بِصَوْتٍ كَالرَّعْدِ «فَرَنْسَا أُمُّ الدُّنْيَا عَمُوم»، سَأَلَهُ شَارِلزُ كراينَ بِحِشْرِيَّةٍ
أَمِيرِكِيَّةٍ اعْتَرَتْهُ أَمَامَ هَذَا الْمَشْهَدِ الْمُسْتَظْرَفِ الْمُسْتَعْرَبِ: «أَنْتَ مَنْ
تَكُونُ، حَتَّى تَتَكَلَّمَ بِاسْمِ هَؤُلَاءِ النَّاسِ؟».

فَأَجَابَ أَنَّهُ صَاحِبُ قَلْعَةٍ نَهْرٍ الْعَاصِي الَّتِي حَاصَرَهَا الْأَتْرَاكُ وَالَّتِي
رَدَّتْ جَمِيعَ الْفَاتِحِينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَقَدْ عَجَزُوا عَنِ الْكِتْسَاحِهَا! وَطَبَعًا
سَأَلَ كراينَ مَا هِيَ قَلْعَةُ الْعَاصِي وَأَيْنَ هُوَ ذَاكَ النَّهْرُ الَّذِي جَاءَ
اسْمُهُ فِي التَّوْرَةِ الَّتِي يَحْفَظُهَا كراينَ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِهِ، فَدَعَاهُ مُحَمَّدٌ
شَمْدِينَ لِزِيَارَتِهِ، وَقَالَ إِنَّهُ مُسْتَعِدٌّ لِمُرَافَقَتِهِ إِلَى قَلْعَتِهِ وَيَدْعُوهُ لِأَنَّ
يَنْزِلُ ضَيْفًا عَلَيْهَا حَيْثُ يُعَدِّيهِ مِنْ سَمَكِ ذَاكَ النَّهْرِ الْمَشْهُورِ الْمَدْعُوِّ
بِاسْمِ التَّرْوَيْتِ وَالَّذِي كَانَ السِّيَاحُ يَسْتَطْبِئُونَهُ جِدًّا وَيَدْفَعُونَ ثَمَنَ أَكْلِهِ
مِنْهُ ثِقْلَهَا ذَهَبًا!

كَمَا وَعَدَهُ كراينَ أَنْ يَأْتِيَهُ إِلَى قَلْعَتِهِ وَيُشَاهِدَ بِخُشُوعِ النَّهْرِ الْمُقَدَّسِ،
وَيَتَعَرَّفَ إِلَى تَارِيخِ تِلْكَ الْقَلْعَةِ، وَفِعْلًا بَعْدَ انْتِهَاءِ أَعْمَالِ لَجْنَتِهِ فِي
بَعْلَبَكَّ، تَوَجَّهَ مَعَ رِفَاقِهِ إِلَى نَبْعِ الْعَاصِي، وَاسْتَحَمَ بِالنَّهْرِ مُتَبَارِكًا
وَوَقَّفَ مَبْهُوتًا أَمَامَهُ، ثُمَّ صَعَدَ السُّلَّمِ الْخَشْبِيَّ - وَهُوَ سُلَّمٌ لَا يَخْتَلِفُ
بِشَيْءٍ عَنِ السَّلَالِمِ الْعَادِيَّةِ الْجَبَلِيَّةِ - وَدَخَلَ شَارِلزُ كراينَ الْمَغَائِرَ
الْوَاحِدَةَ تِلْوُ الْأُخْرَى، وَاسْتَمَعَ إِلَى الْأَسَاطِيرِ الَّتِي تُحْكِي عَنْ ذَاكَ الدَّيْرِ

الَّذِي كَانَ مَرَعَى لِلْمَاعِزِ، وَكَيْفَ أَنَّ مَارَ يُوْحَنَّا مَارُونَ جَاءَ مِنْ مَدِينَةِ
حَمَاةَ عَلَى الْأَكْثَرِ لِاحِقًا بِأَبِي الطَّائِفَةِ مَارَ مَارُونَ الْكَبِيرِ، وَتَحَصَّنَ فِي
ذَلِكَ الْجَبَلِ الْقَائِمِ جِدَارًا مِنَ الصَّخْرِ عَلَى ضِفَّةِ النَّبْعِ الْمُقَدَّسِ، هَارِبًا
مِنَ الْأَضْطِهَادَاتِ الَّتِي كَانَتْ تُلَاحِقُهُ وَتُلَاحِقُ رِفَاقَهُ!

وَلَمَّا لَجَأَ مَارَ يُوْحَنَّا مَارُونَ إِلَى تِلْكَ الْمَغَاوِرِ، فَأَخَذَ مَعَ رِفَاقِهِ فِي نَقْرِ
جَوَانِبِهَا وَسُقُوفِهَا وَفَتَحَ الثَّغْرَاتِ فِيمَا بَيْنَهَا، حَتَّى اتَّسَعَتْ نَوْعًا مَا،
فَاعْتَصَمُوا بِهَا إِلَى أَنْ فُتِحَتْ أَمَامَهُمْ أَبْوَابُ لُبْنَانَ فَدَخَلُوهُ وَهَجَرُوها!
وَقَالَ مُحَمَّدٌ شَمْدِينٌ لِلْمُسْتَرِّ كَرَايِنَ الَّذِي كَانَ قَدْ أَصْبَحَ بَعْدَ بَضْعِ
سَاعَاتِ صَدِيقَهُ الْأَعَزِّ:

«وَهَذَا مَا فَعَلْتُ أَنَا الْآخِرُ. لَقَدْ عَلَّمَنِي مَارَ يُوْحَنَّا مَارُونَ، ذَاكَ الرَّجُلُ
الصَّالِحُ، حِكَايَةَ السُّلْمِ الْخَشْبِيِّ الطَّوِيلِ، أَصْعَدَ عَلَيْهِ إِلَى الدَّيْرِ، وَأَسْحَبَهُ
مِنْ وَرَائِي، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ بَعْدَ ذَلِكَ غَيْرُ الْعِقَابِ وَالتَّنْسِرِ الْوُصُولَ
لِعِنْدِي...»

وَبَعْدَ ذَهَابِ لَجْنَةِ كَرَايِنَ كَافَأَ الْفَرَنْسِيُّونَ مُحَمَّدَ شَمْدِينِ وَإِبْرَاهِيمَ
شَمَصَ وَغَيْرَهُمَا مِنْ زُعَمَاءِ الْعَشَائِرِ الَّذِينَ طَالَبُوا فَرَنْسَا بِإِنْشَاءِ كَتِيبَةِ
عَسْكَرِيَّةٍ مِنْ رِجَالِهِمْ وَجَعَلُوهُمْ قَوَادِمًا عَلَيْهَا فَشَاهَدْنَاهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى
رَأْسِ الْفِرْقَةِ، يَرْتَدُونَ الْبِزَاتِ الْعَسْكَرِيَّةَ الْمُتَعَدِّدَةَ الشَّرَائِطِ وَالطَّبَشَاتِ
الدَّهْبِيَّةِ الْبِرَاقَةِ، مِمَّا كَانَ يُعْطَى لِمُحَمَّدَ شَمْدِينِ هَيْئَةَ الْمَارِشَالِ
بِلِسُودَسْكِ الْبُولُونِيِّ، وَإِبْرَاهِيمَ شَمَصَ هَيْئَةَ الْأَمِيرَالِ زَعُورِ بَاشَا التُّرْكِيِّ،
وَكَانَ شَمَصَ قَدْ شَلَحَ الْأَمِيرَالِ بَرَّتَهُ الَّتِي يَلْبَسُهَا مَعَ جَمِيعِ أَوْسِمَتِهَا لَمَّا
هَجَمَ رِجَالُ الْعَشَائِرِ عَلَى الْمُعَسْكَرِ التُّرْكِيِّ وَهُوَ مُنْسَحِبٌ مِنْ لُبْنَانَ
نَحْوَ حَلَبِ.

كُنْتُ قَدْ حَرَصْتُ عَلَى أَنْ يَنْتَقِلَ شَارْلَزُ كَرَايِنَ مِنْ زَحَلَةٍ إِلَى بِلَادِ

بَعْلَبَكْ قَبْلَ سِوَاهَا مِنَ الْأَقْضِيَةِ الْأَرْبَعَةِ، حَيْثُ كُنْتُ قَدْ تَدَبَّرْتُ كَمَا
قُلْتُ أَعْلَاهُ، جَمِيعَ حَمَلَةِ السُّيُوفِ وَالثُّرُوسِ وَهَكَذَا كَانَ...
وَكَانَ الْحِيَادِرَةُ مِنْ جِهَةٍ، وَالْحَمَادِيَّةُ مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ قَدْ انْشَطَرُوا بَعْضُهُمْ
عَلَى بَعْضٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ طَلَبَ إِنْكَلِتْرًا وَمِنْهُمْ مَنْ طَلَبَ فَرَنْسَا، وَكَانَ
أَسْعَدُ بَكْ حَيْدَرٌ، وَالِدُ إِبْرَاهِيمِ بَكْ حَيْدَرٍ، عَضْوًا فِي الْمُؤْتَمَرِ السُّورِيِّ
بِالشَّامِ، وَكَانَ مُحَمَّدُ سَعِيدُ بَاشَا حَمَادَةَ عَضْوًا فِي ذَلِكَ الْمُؤْتَمَرِ، بَيْنَمَا
كَانَ إِبْرَاهِيمُ حَيْدَرُ بَكْ عَلَى صَدَاقَةٍ وَصِلَاتٍ مَتِينَةٍ مَعَ الْكُولُونِيلِ نَيْجَرِ
حَاكِمِ الْمِنْطَقَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَمَعَ الْبَعْثَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ، رَغَمَ صَدَاقَتِهِ لِلشَّامِ؛
وَكَانَ صَبْرِي حَمَادَةَ الشَّابُّ الْيَافِعُ يَوْمَئِذٍ، وَابْنُ بِنْتِ مُحَمَّدِ سَعِيدِ
حَمَادَةَ صَدِيقِ الْكُولُونِيلِ نَيْجَرِ أَيْضًا، وَصَدِيقِ الْبَعْثَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ بَيْرُوتِ.
كَانَ يَوْسُفُ نَمُورٍ مِنْ مَعْلَقَةِ زَحْلَةَ عَضْوًا فِي الْمُؤْتَمَرِ السُّورِيِّ، وَشَقِيقُهُ
مُوسَى نَمُورٍ أَحَدَ الْمُقَرَّبِينَ جِدًّا لِلْبَعْثَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَدِيْوَانَ الْمَفُوضِ
السَّامِيِّ بَيْرُوتِ.

غَيْرَ أَنَّ «الباش بُزُوق» بِأَجْمَعِهِمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ اِكْتَسَبْنَاهُمْ رَأْسًا، هُمْ
الَّذِينَ عَمِلُوا الْاِسْتِفْتَاءَ، وَهُمْ الَّذِينَ أَعْطَوْا الْأَكْثَرِيَّةَ لِفَرَنْسَا فِي مِنتَقَةِ
كَانَتْ مَعْدُودَةً مِنْ أَصْعَابِ الْمَنَاطِقِ عَلَى الْفَرَنْسِيِّينَ.
وَلَمَّا رَأَى أَهَالِي الْبِقَاعِ وَحَاصِبِيَا وَرَاشِيَا أَنَّ بَعْلَبَكْ تُمَاشِي فَرَنْسَا، تَرَخَى
الْأَمْرُ مَعَ طُلَّابِ غَيْرِ فَرَنْسَا فِيهَا، وَتَرَكَوَا جَمَاعَةَ الْفَرَنْسِيِّينَ يَعْْمَلُونَ مَا
يُرِيدُونَ فِيهِمْ.

هَكَذَا جَاءَ الْاِسْتِفْتَاءُ لِصَالِحِ فَرَنْسَا فِي الْأَقْضِيَةِ الْأَرْبَعَةِ، يَدْحَضُ الْحُجَّةَ
الْكُبْرَى الَّتِي تَذَرَعُ فَيُصَلُّ بِهَا وَالَّتِي جَعَلْتُهُ يَحْتَلُّ تِلْكَ الْأَقْضِيَةَ قَبْلَ
وُصُولِ الْفَرَنْسِيِّينَ، إِذْ كَانَ يَقُولُ إِنَّ أَهَالِي تِلْكَ الْأَقْضِيَةِ لَا يُرِيدُونَ
الْفَرَنْسِيِّينَ وَلَا الْاِلْتِحَاقَ بِلُبْنَانَ.

وَمُقَابِلَ ذَلِكَ كَانَ الْفَرَنْسِيُّونَ يَحْرِصُونَ عَلَى تَكْبِيرِ جَبَلِ لُبْنَانَ وَإِضَافَةِ

الأفضية الأربعة وطرابلس وعكار والساحل وصيدا وصور وجبل عامل
إلى جبل لبنان.

وطبعا، لم يقدم استفتاء كراين في مصير الأفضية الأربعة، ولن يؤخر
شيئا، إذ لم تكن فرنسا وإنكلترا تعترفاً به رسمياً، وكان معروفاً أن
مجلس الأربعة الكبار في باريس هو الذي يتخذ القرار الأخير عندما
يقرر مصير سوريا ولبنان.

ولكن مجيء ذلك الاستفتاء لصالح فرنسا، جاء يعاضد مشروع قيام
لبنان الكبير الذي كان يقضي بضم الأفضية الأربعة وسواها لجبل
لبنان مما سيأتي تفصيله في سياق هذه المذكرات.

هدية ملكية من الفرنسيين

ولنعُد إلى شارلز كراين، الذي مرَّ مرور الكرام، ومن بعيدٍ لبعيدٍ، في
البقاع وحاصبيا وراشيا، بعد استفتاء بعلمك.

والآن، كتصفيّة للحساب، يجب أن نقول إننا طلعنا شخصياً من ذلك
الاستفتاء بالغميمة... والقيمة التي حملناها من صناديق الكابتين
ماسينيون كدفعة أولى كانت كافية، ولم نطلب الدفعة الثانية التي
كان الفرنسيون قد أعدوها إذا احتجنا إليها، ولكننا لم نكن صفيقي
الوجه إلى حدّ الطمع، فجعلنا الخمسين ألفاً كافيةً للفرنسيين ولأهل
السيف والثرس ولنا!

ونقول «لنا» أيضاً، لأنه كان من السذاجة والτίαςة ألا نحسب حساب
أنفسنا.

طبعا، أخذت ترد على المفوضية السامية شكاوى ضدنا من الزعماء
الذين لم يستطيعوا المتاجرة هذه المرة، وقد جعلنا زلمهم وأنصارهم

بَعِيدِينَ عَنَّا. فَكَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّنَا أَخَذْنَا الْأَمْوَالَ الْكَثِيرَةَ لِأَنْفُسِنَا، وَلَمْ نَصْرِفْهَا عَلَى الْمُهَيَّمَةِ الْمُلْقَاةِ عَلَى عَاتِقِنَا.
كَانَ الْكَابِتِن دَام يُعِيدُ كُلَّ بَرْقِيَّةٍ شَكْوَى عَلَيْنَا لِصَاحِبِهَا مَعَ كَلِمَةٍ مُرْتَجِعٍ مَعَ الشُّكْرِ وَرَفِضِ الشُّكْوَى، تَمَامًا كَمَا يُعِيدُ أَحَدُنَا الْجَرِيدَةَ الْجَدِيدَةَ الَّتِي يُرْسِلُهَا صَاحِبُهَا لَهُ مَعَ عِبَارَةٍ: «مُرْتَجِعٌ مَعَ الشُّكْرِ».
وَعَمَلِ الْكَابِتِن دَام أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.

اسْتَدْعَانِي إِلَيْهِ بَعْدَ الاسْتِفْتَاءِ بِأَيَّامٍ، وَكَانَ الْمِسْتَر كراين قَدْ عَادَ إِلَى أوروْبَّا، وَكَانَ الْمِسْتَر بِلِس رَيْسُ الرَّئِيسِ الْجَامِعَةِ الْأَمِيرِكِيَّةِ أَقْفَلَ بَابَ مَكْتَبِهِ وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَرَى أَحَدًا، وَكَانَ شَانْتور رَيْسُ الْجَزْوِيَّةِ وَسَارلوت رَيْسُ عَيْنِطُورَةَ الْعَازَارِيَّةِ يَتَبَادَلَانِ التَّهَانِي - اسْتَدْعَانِي الْكَابِتِن دَام إِلَيْهِ، وَأَسْمَعَنِي كَلَامًا لَطِيفًا جِدًّا - ثُمَّ أَرْسَلَنِي إِلَى الْكَابِتِن مَاسِينِيون، فَتَقَدَّنِي مُكَافَأَةً مُلُوكِيَّةَةً كَرِيمَةً.

وَكُنْتُ حَتَّى ذَلِكَ الْحِينِ، وَحَتَّى قُبَيْلَ أَنْ انْكَسَرَتْ تُرْكِيَا وَجَاءَ الْحُلَفَاءُ إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ، وَمَاشَيْتُ الْفَرَنْسِيِّينَ، كُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّ الدُّنْيَا تَنْقَلِبُ رَأْسًا عَلَى عَقَبٍ يَوْمَ يَصِيرُ مَعِي خَمْسِمِئَةَ لِيرَةٍ عَشْمَانِيَّةً...

حَيْثُ كراين لَمْ يَسْمَعْ وَلَمْ يَفْشَعْ!

كَمَا كَانَتِ الرَّيَايَاتُ الْفَرَنْسِيَّةُ تَنْتَظِرُ قُدُومَ كراين بِزَحْلَةٍ لِصَالِحِ فَرَنْسَا، كَانَ الْمُؤْتَمَرُ السُّورِيُّ يَنْتَظِرُ قُدُومَهُ لِدمَشْقٍ لِصَالِحِ فَيْصَل، كَيْ يَفْطَعَ عَلَيْهِ الْكَلَامَ.

جَابَهُهُ الْمُؤْتَمَرُ السُّورِيُّ بِالْقَرَارِ التَّارِيخِيِّ الَّذِي كَانَ قَدْ اتَّخَذَهُ قَبْلَ وُصُولِهِ لِهَذِهِ الْبِلَادِ، وَخِلَاصَتُهُ: اسْتِقْلَالُ عَرَبِيٍّ شَرِيفِيٍّ أَوَّلًا، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ وَصَايَةِ أَوْ مَرَكِزٍ مُمْتَاذٍ، فَأَمِيرِكَا ثُمَّ انْكِلتِرَا، وَلَكِنَّ فَرَنْسَا

لَنْ تَكُونَ عَلَى جَمِيعِ الْأَحْوَالِ!

وَكَانَتْ بَعْضُ الْعُنَاصِرِ الْمَسِيحِيَّةِ بِدِمَشْقَ، وَخُصُوصًا بِحَلَبَ، وَقَلِيلٌ مِنَ الْأَوْسَاطِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْمَدِينَتَيْنِ الْكَبِيرَتَيْنِ، يَمِيلُ إِلَى الْمُطَالَبَةِ بِإِعْطَاءِ فَرَنْسَا مَرْكَزًا مُمْتَازًا، وَلَكِنَّ الْقَائِلِينَ بِذَلِكَ كَانُوا أَقْلِيَّةً ضَائِلَةً. وَلَمَّا نَادَوْا بِهَذَا الطَّلَبِ لَمْ يَسْمَعْ لَهُمْ أَحَدًا!

وَكَانَتْ الْمَدَارِسُ الْفَرَنْسِيَّةُ فِي الْمُدُنِ السُّورِيَّةِ عَدِيدَةً أَيْضًا، وَكَانَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ رِجَالِ السِّيَاسَةِ السُّورِيَّةِ قَدْ تَعَلَّمُوا فِي تِلْكَ الْمَدَارِسِ. وَلِلتَّذَلِيلِ عَلَى مَدَى انْتِشَارِ اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ فِي سُورِيَا فِي ذَلِكَ الْحِينِ، نَذَكُرُ أَنَّ عَدَدَ التَّلَامِيذِ فِي الْمَدَارِسِ الْفَرَنْسِيَّةِ كَانَ تَسْعِينَ أَلْفًا. وَهُوَ رَقْمٌ يَسْتَلْفُ النَّظَرَ، فِي بَلَدٍ كَانَ ٨٠ بِالْمِئَةِ مِنْ أَهْلِهِ أُمَّيِّن!

وَكَانَ تَعْلِيمُ اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ إِجْبَارِيًّا فِي بَعْضِ تِلْكَ الْمَدَارِسِ، كَمَا كَانَتْ الْحَالُ بِلُبْنَانَ بِوَجْهِ عَامٍّ، حَتَّى إِنَّ الْمَدَارِسَ الْعِلْمَانِيَّةَ الْوَطْنِيَّةَ فِي دِمَشْقَ وَحَلَبَ جَعَلَتْ، هِيَ الْأُخْرَى، تَعْلِيمَ اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ تَقْرِيْبًا إِجْبَارِيًّا.

جُيُوشُ آلِنَبِيِّ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ

وَالجَدِيرُ بِالدُّكْرِ أَنَّ اللُّغَةَ الْفَرَنْسِيَّةَ كَانَتْ يَوْمَئِذٍ تَعْمُ جَمِيعَ بُلْدَانِ الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ، فَضْلًا عَنِ الْيُونَانِ وَالْبَلْقَانِ وَتُرْكِيَا وَإِيرَانَ، وَحَتَّى فِي مِصْرَ الَّتِي كَانَ الْإِنْكِلِيزُ يَحْتَلُونَهَا وَيَعْمَلُونَ عَلَى تَرْوِيجِ لُغَتِهِمْ فِيهَا. وَكَانَتْ اللُّغَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ لُغَةَ الْمُجْتَمَعِ الْعَالِيِ وَالْأَوْسَاطِ الْبُورْجُوزَاوِيَّةِ فِي هَذِهِ الْبُلْدَانِ، وَلُغَةَ الْمُعَامَلَاتِ الرَّسْمِيَّةِ مَعَ الْأَجَانِبِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ.

وَدَلَّتِ الْأَرْقَامُ عَلَى أَنَّ عَدَدَ الْمَدَارِسِ وَالْمُسْتَشْفِيَّاتِ وَالْمَلَاجِئِ وَالْأَدْيِرَةِ
الْفَرَنْسِيَّةِ فِي لُبْنَانَ كَانَ يَفُوقُ عَدَدَ جَمِيعِ الْمَدَارِسِ وَالْمُسْتَشْفِيَّاتِ
وَالْمَلَاجِئِ وَالْمِيَاثِمِ الْوَطَنِيَّةِ وَالْأَجْنَبِيَّةِ مِرَارًا!
وَكَمَا كَانَتِ الْفَرَنْسِيَّةُ فِي إِسْطَنْبُولِ اللَّغَةِ الثَّانِيَّةِ فِي ذَاكَ الزَّمَانِ،
كَانَتْ كَذَلِكَ فِي بُوخَارِسْتِ. وَكَمَا كَانَتْ فِي بُوخَارِسْتِ كَانَتْ فِي
أَثِينَا وَبَيْرُوتَ، وَحَتَّى فِي دِمَشْقَ وَحَلَبَ! وَانْتَشَارَ اللَّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ
أَعْطَى فَرَنْسَا فِي هَذِهِ الْبُلْدَانِ مَرْكَزًا اجْتِمَاعِيًّا وَتَقَافِيًّا، وَأَعْطَى
فَرَنْسَا الْمَرْكَزَ السِّيَاسِيَّ الَّذِي كَانَتْ قَدِ اكْتَسَبَتْهُ، وَأَنْشَأَتْ لِنَفْسِهَا
تِلْكَ الْمَكَانَةَ الْمَرْمُوقَةَ الْعَالِيَةَ بَيْنَ الدُّوَلِ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الْعَالَمِ.
ثُمَّ جَاءَ جَيْشُ الْمَارْشَالِ آلَنْبِي، وَجَاءَتْ بَعْدَهُ لَجَنَةُ كِرَايْنِ وَمِنْ
وَرَائِهَا وَيْلَسُونِ وَبِلَادُهُ، لَا بِالسَّلَاحِ وَالْعِتَادِ وَالْقُوَّةِ وَالْأَعْذِيَّةِ فَحَسْبُ،
بَلْ أَيْضًا بِاللُّغَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ، تَحْتَلُّ رُويْدًا رُويْدًا مَكَانَ اللَّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ،
وَسَاعَدَ عَلَى ذَلِكَ طَوَّلَ إِقَامَةِ الْجُنُودِ الْإِنْكِلِيزِ فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنْ بِلَادِنَا
أَثْنَاءَ الْحَرْبِ الثَّانِيَّةِ، يَخْتَلِطُونَ بِالنَّاسِ بِطَرِيقَةٍ عَامَّةٍ مِمَّا سَاعَدَ عَلَى
انْتِشَارِ لُغَتِهِمْ خُصُوصًا فِي بِيئَةِ الْعَامَّةِ مِنَ النَّاسِ وَبَنُوعٍ خَاصٍّ فِي
كُلِّ دَسْكَرَةٍ كَانَ فِيهَا مَحَطَّةٌ عَسْكَرِيَّةٌ إِنْكِلِيزِيَّةٌ وَأُسْتِرَالِيَّةٌ وَمُسْتَوْدَعَاتُ
الْأَعْذِيَّةِ وَاللُّبَاسِ وَالْمَأْكَلِ، وَحَيْثُ كَانَتِ الْمُتَاجِرَاتُ الْمَشْرُوعَةُ وَغَيْرُ
الْمَشْرُوعَةِ رَاجِعَةً جِدًّا!

وَلَا شَكَّ، كَمَا يَعْتَرِفُ الْمُسْتَشْرِقُونَ بِأَجْمَعِهِمْ، أَنَّ قُوَّةَ اقْتِبَاسِ اللُّغَاتِ
فِي بِلَادِنَا نَوْعٌ مِنَ الْأَعْجُوبَةِ، لِهَذَا لَمْ يَمُضْ وَقْتُ طَوِيلٌ عَلَى وُجُودِ
الْجُيُوشِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ هُنَا حَتَّى صَارَ أَكْثَرُنَا يَتَكَلَّمُ الْإِنْكِلِيزِيَّةَ، إِنْ لَمْ

يَكُنْ مِثْلَ شِخْصِيرٍ فَعَلَى الْأَقْلِّ كَمَا كَانَ الْجُنُودُ السِّنْغَالِيُونَ يَتَكَلَّمُونَ
الْفَرَنْسَاوِي!

عَرَبٌ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ

تَرَكْنَا كراين في دِمَشَقٍ يُتَابِعُ اسْتِفْتَاءَهُ، وَيَأْخُذُ عِلْمًا بِقَرَارِ الْمُؤْتَمَرِ
السُّورِي أَوَّلًا، ثُمَّ بِعُرُوبَةِ بَطْرِيكِ الأُرْتُوذُكْسِ الكَبِيرِ غريغوزيوس حَدَادَ،
الَّذِي مَاشَى مِنْذُ السَّاعَةِ الأُولَى مَعَ مَطَارِينِهِ وَرُعَمَاءِ طَائِفَتِهِ الشَّرِيفِ
فَيَصَلُّ بِلا قَيْدٍ وَلا شَرْطٍ.

وَفي المُقَابَلَةِ الَّتِي جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ كراين أَدْلَى بِذَلِكَ التَّصْرِيحِ المَعْرُوفِ
الَّذِي نَادَى فِيهِ بِالْعُرُوبَةِ، بَيْنَمَا كَانَ كراين يُظْهِرُ دَهْشَتَهُ لِسَمَاعِهِ حَبْرًا
عَظِيمًا نَصْرَانِيًّا يُطَالِبُ بِدَوْلَةِ شَرِيفِيَّةِ عَرَبِيَّةٍ فِي سوريَا وَلُبْنَانَ. وَمِمَّا
قَالَهُ البَطْرِيكُ:

«نَحْنُ النَّصَارَى الأُرْتُوذُكْسِ فِي هَذَا البَلَدِ عَرَبٌ غَسَّاسِنَةٌ تَدْعُونَا عُرُوبَتُنَا
لِنَكُونَ يَدًا وَاحِدَةً مَعَ أبنَاءِ قَوْمِنَا، وَمَعَ الدَّوْلَةِ العَرَبِيَّةِ الشَّرِيفِيَّةِ الَّتِي
ارْتَضَيْنَاهَا وَقَبَلْنَاهَا».

واهِتَمَّ كراين جِدًّا لِهذا التَّصْرِيحِ الخَطِيرِ.

وَبَعْدَ هَذَا التَّصْرِيحِ لَمْ يَعْذُ كراين يُصَدِّقُ أَنَّ نَصَارَى الشَّرْقِ هُمْ جَمِيعًا
مَعَ فَرَنْسَا، وَاكتَشَفَ فِي سوريَا نَصَارَى كَثِيرِينَ مَعَ الشَّرِيفِ، فَأَرْسَلَ
بَرْقِيَّتَهُ المَشْهُورَةَ لِلرَّئِيسِ وَيَلْسُونُ يُخْبِرُهُ فِيهَا أَنَّ القَضِيَّةَ العَرَبِيَّةَ لَيْسَتْ
قَضِيَّةً إِسْلَامِيَّةً - كَمَا كَانَ كَلِيمَنصُو يُصَوِّرُهَا لَهُ - بَلْ هِيَ قَضِيَّةٌ وَطَنِيَّةٌ،
وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ بَطْرِيكِ الأُرْتُوذُكْسِ الَّذِي هُوَ بابُ الرُّومِ فِي هَذِهِ
البِلَادِ عَرَبِيٌّ أَكْثَرُ مِنْ كَثِيرِينَ مِنْ كِبَارِ الشَّرِيفِيِّينَ العَرَبِ!

حِكَايَةُ الْجِسْرِ الْمُضْحَكَةِ

سافرَ كراينَ وَوَجَّهَهُ إِلَى بَاريسَ، قَبْلَ عَوْدَةِ الْأَمِيرِ فَيَصِلُ مِنْهَا بِبِضْعَةِ أَيَّامٍ. وَلَمَّا وَصَلَ الْأَمِيرُ فَيَصِلُ لِبَيْرُوتَ عَائِدًا مِنْ بَاريسَ - اسْتَقْبَلَهُ الْفَرَنْسِيِّونَ يَوْمَئِذٍ اسْتِقْبَالَ الْمُلُوكِ - وَنَزَلَ ضَيْفًا لَدَى الْجِنْرَالِ الْإِنْكِلِيزِيِّ كَلِيتونَ، قَائِدِ الْحُلَفَاءِ فِي الْمِنْطَقَةِ الْغَرْبِيَّةِ، وَذَلِكَ فِي قَصْرِ الْمَرْحُومِ الْيَاسِ إِبْرَاهِيمِ سُرْسُوقِ.

فِي الْأَيَّامِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي قَضَاهَا الْأَمِيرُ فَيَصِلُ بِبَيْرُوتَ تَدَفَّقَ النَّاسُ عَلَيْهِ، مِنْ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ، وَكَانَ الْأَمِيرُ يَجْتَذِبُهُمْ كَالْمِغْنَطِيسِ، وَيَسْحَرُهُمْ، بِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ رِقَّةٍ وَنُبْلٍ، وَبِالْبَرِيقِ الْفَاتِنِ الَّذِي كَانَ يَنْبَعِثُ مِنْ عَيْنَيْهِ، وَبِشِدَّةِ إِيمَانِهِ بِالْقَضِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي أَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ تَحْقِيقَ أَهْدَافِهَا.

وَتَجَلَّتْ لِبَاقَتِهِ لَمَّا اخْتَصَّ كِبَارَ النَّصَارَى وَالْأَخْبَارَ الْمَوَارِنَةَ الَّذِينَ زَارُوهُ بِعِنَايَةٍ عَالِيَةٍ جَعَلَتْهُمْ يُؤْخَذُونَ بِهِ.

وَحَالَ تِلْكَ الْأَيَّامِ الْأَرْبَعَةَ بِبَيْرُوتَ، ظَلَّ الشَّرِيفُ عَلَى اتِّصَالٍ دَائِمٍ بِالْمَفْوضِيَّةِ السَّامِيَّةِ الْفَرَنْسِيَّةِ. وَكَانَ قَدْ رَسَّحَ مِنْ دِيوانِهِ وَرِجَالِ حَاشِيَتِهِ أَنَّ الرَّئِيسَ كَلِيمَنْصُو قَدْ عَقَدَ سِرًّا مَعَ الْأَمِيرِ فَيَصِلُ اتِّفَاقِيَّةً «جَنْتَلْمَنْ» تَقْضِي بِإِعْطَاءِ سُمُوهُ عَرْشًا عَلَى مَمْلَكَةِ سُورِيَّةِ كُبْرَى، يَكُونُ لُبْنَانُ جُزْءًا مِنْهَا.

هَذَا الْخَبْرُ الْخَطِيرُ أَقْلَقَ بِأَلِ السِّيَاسِيِّينَ اللَّبْنَانِيِّينَ الْمَوَارِنَةَ، فَأَسْرَعُوا يَسْتَفْسِرُونَ الْمَفْوضِيَّةَ السَّامِيَّةَ عَنْ صِحَّتِهِ، فَاصْطَدَمُوا بِسُكُوتِ تَامٍ جَعَلَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْخَبَرَ لَيْسَ عَارِيًا مِنَ الصَّحَّةِ.

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ لِسَفَرِ فَيَصِلُ إِلَى دِمَشْقَ، أَخَذَ الْمَفْوضُ السَّامِي يَسْتَدْعِي كِبَارَ الْمَسْؤُولِينَ اللَّبْنَانِيِّينَ، الْوَاحِدَ تِلْوَ الْآخَرِ، وَيُفَهِّمُهُمْ أَنَّ

الحُكُومَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ تَتَمَتَّى أَنْ يَقُومَ بَيْنَ سُورِيَا وَلُبْنَانَ جِسْرٌ لِلتَّعَاوُنِ...
وَقَدْ اسْتَعْمَلَ الْمَفْرُوضُ كَلِمَةَ «جِسْرٍ» حَرْفِيًّا. وَلَمَّا سَأَلَهُ السِّيَاسِيُّونَ عَنْ
مَعْنَاهَا، قَالَ:

«يَعْنِي أَنْ يَكُونَ فَيَصِلُ مَلِكًا عَلَى سُورِيَا وَلُبْنَانَ، تَحْتَ الضَّمَانَةِ
الْفَرَنْسِيَّةِ وَلَمْ يَقُلِ «الْحِمَايَةِ أَوْ الْوَصَايَةِ» عَلَى أَنْ يَحْتَفِظَ لُبْنَانَ بِجَمِيعِ
مِيزَاتِهِ وَامْتِيَازَاتِهِ وَاسْتِقْلَالِهِ الدَّاخِلِيِّ».

عُدْنَا إِلَى كِرَايِنَ مَرَّةً أُخْرَى

لِنَعُدَّ قَلِيلًا إِلَى صَدِيقِنَا الْمُسْتَرِ شَارْلَزْ كِرَايِنَ. بَعْدَ وُصُولِهِ لِدمَشْقِ أَمْضَى
جَمِيعَ أَوْقَاتِهِ فِي زِيَارَةِ الْأَمَاكِنِ الْأَثَرِيَّةِ، وَحَضَرَ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ فِي الْجَامِعِ
الْأُمَوِيِّ، وَقَالَ لِفَخْرِيِّ الْبَارُودِيِّ، الَّذِي كَانَ قَدْ أَصْبَحَ صَدِيقَهُ الْأَعَزَّ:
«مَا رَأَيْتُهُ عِنْدَ هَذِهِ الْأُلُوفِ مِنَ الْمُصَلِّينَ فِي الْجَامِعِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّقَشُّفِ
يَجْعَلُنِي مُتَأَكِّدًا مِنْ أَنَّهُمْ سَيَصِلُونَ بَعْدَ عُمُرٍ طَوِيلٍ إِلَى الْجَنَّةِ رَأْسًا!».
وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ، خَلَقَ اللَّهُ الْعَالَمَ، وَتَرَكَ شَارْلَزْ كِرَايِنَ هَذِهِ الْبِلَادَ، وَدَهَبَتْ
جَمِيعُ أَعْمَالٍ لَجَنَّتِهِ بِالْبَحْرِ!
ذَلِكَ أَنَّ مُؤْتَمَرَ الصُّلْحِ تَسَلَّمَ مُبَاشَرَةً قَضِيَّةَ سُورِيَا وَلُبْنَانَ، وَأَفْتَحَ الْحُلْفَاءُ
الْأَمِيرَكَانَ بِضُرُورَةٍ احْتِلَالِهِمْ لِهَذِهِ الْبِلَادِ.
وَعَرَفَ النَّاسُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَأَخَصُّهُمْ الْجَزَوِيَّةَ وَالْعَازَارِيُونَ، أَنَّهُمْ تَخَلَّصُوا
مِنْ كِرَايِنَ!

وَلَكِنَّ الْخَلَاصَ مِنْ كِرَايِنَ لَمْ يَكُنْ سَهْلًا!

لَقَدْ غَادَرَ كِرَايِنَ هَذِهِ الْبِلَادَ وَهُوَ يَتَلَقَّفُ وَرَاءَهُ وَيَتَوَقَّعُ إِلَيْهَا. وَظَلَّ يَتَلَقَّفُ
وَرَاءَهُ مِنْ نَيْسَانَ ١٩١٩ حَتَّى نَيْسَانَ ١٩٢٢، حِينَ ظَهَرَ كِرَايِنَ فَجَاءَهُ فِي
سُورِيَا، بَعْدَ أَنْ كَانَ النَّاسُ قَدْ نَسُوهُ تَمَامًا، وَدُهَشَ أَهَالِي تِلْكَ الْبِلَادِ مِنْ

هَذَا الظُّهُورِ المُفَاجِئِ.

وَكَانَتْ سوريَا وَلُبْنَانُ قَدْ أَصْبَحَا تَحْتَ الاِنْتِدَابِ الفَرَنْسِيِّ بِالاِتِّفَاقِ مَعَ اِنْكِلِترَا
وَجَمْعِيَةِ الأُمَّمِ بِجَنيفَ، وَمِنْ وِرَاءِ مُؤْتَمَرِ سانِ ريمو. وَلَمْ يَبْقَ لِكرَاينِ مَا
يَفْعَلُهُ عِنْدَنَا.

أَمَّا هُوَ فَكَانَ لَهُ رَأْيٌ آخَرٌ. إِنَّهُ لَمْ يَنْسَ أَنَّ الفَرَنْسِيِّينَ لَعَبُوا عَلَيْهِ فِي
لُبْنَانَ وَسوريا، وَخُصُوصًا فِي بَعْلَبَكِّ وَالأَقْضِيَةِ الأَرْبَعَةِ، فَعَادَ اِلَى هَذِهِ
الْبِلَادِ بَعْدَ سَنَتَيْنِ ليرَى كَيْفَ يَثَارُ لِنَفْسِهِ مِنْهُمْ!
وَوَجَدَ كراينَ أَنَّ الفَرَنْسِيِّينَ مَا يَزَالُونَ أَحْيَاءَ فِي سوريا وَلُبْنَانَ، وَأَنَّ
اِنْتِدَابَهُمْ عَمَّ المِنطَقَتَيْنِ، وَأَنَّهُمْ اسْتَطَاعُوا اسْتِرْضَاءَ الكَثِيرِينَ مِنَ الأَهَالِي؛
وَقَدْ كَانُوا ثَائِرِينَ عَلَيْهِمْ فِي السَّابِقِ.

وَلَكِنْ، مَاذَا عَمِلَ كراينَ، حَتَّى قَامَتِ الثُّورَةُ فِي اليَوْمِ الثَّلَاثِ لِوُصُولِهِ
فِي طرابُلُسَ وَفِي بَعْلَبَكِّ وَدَيْرِ الزُّورِ، وَفِي جَبَلِ الدُّرُوزِ، وَفِي كُلِّ مَكَانٍ
أَخَذَ يَزورُهُ، مِمَّا اضْطَرَّ القَوَاتِ الفَرَنْسِيَّةَ الَّتِي كَانِ يَقُودُهَا الجِنِرَالُ دي
لاموت لاسْتِعْمَالِ القُوَّةِ بِشِدَّةٍ لِإخْمَادِ تِلْكَ الفِتَنِ؟!

وَكَانَ الجِنِرَالُ غورو يَوْمئِذٍ مُفَوَّضًا سَامِيًا، فَاتَّهَمَ اِلِنْكِلِيزَ بِأَنَّهُمْ دَبَّرُوا، مَعَ
كراينَ، هَذِهِ الفِتَنَ لِإشْعَالِ ثُوْرَةٍ ضِدَّ الفَرَنْسِيِّينَ فِي سوريا.

وَزَعَمَ الجِنِرَالُ غورو أَنَّ الدُّكْتُورَ عَبدَ الرَّحْمَنِ الشَّهْبَنْدَرِ هُوَ الَّذِي أَوْقَدَ
تِلْكَ الفِتَنَ بِالاِتِّفَاقِ مَعَ كراينَ وَمَعَ أَصْدِقَائِهِ اِلِنْكِلِيزِ. فِي الوَقْتِ الَّذِي
كَانَ فِيهِ الجِنِرَالُ دي لاموت يُخَمِدُ الفِتَنَ بِسوريا، كَانَ كراينَ يَضُبُّ شُنَطَهُ
وَيَتْرُكُ هَذِهِ البِلَادَ، دُونَ أَنْ يَلْتَفِتَ هَذِهِ المَرَّةَ وِرَاءَهُ. وَقَدْ مَضَتْ عَلَى
ذَلِكَ أَرْبَعُونَ سَنَةً، وَلَمْ نَعُدْ نَسْمَعُ عَنْهُ شَيْئًا!

نوري السعيد بين الشلوج والزهبة

كَتَبَ الْقَدْرُ مُنْذُ الْبِدَايَةِ أَنْ يَنْتَهِيَ نوري السَّعِيدُ حَيْثُ بَدَأَ... بَدَأَ مَعَ
فَيْصَلِ الْكَبِيرِ وَانْتَهَى مَعَ فَيْصَلِ الصَّغِيرِ؛ بَدَأَ مَعَ الْجَدِّ وَانْتَهَى مَعَ
الْحَفِيدِ! وَلَوْ لَمْ يَنْتَهَ نوري بِانْتِهَاءِ الْعَائِلَةِ الَّتِي كَرَسَ حَيَاتَهُ لِخِدْمَتِهَا لَمَا
كَانَ الْمَكْتُوبُ قَدْ تَحَقَّقَ!

كَانَ مَكْتُوبًا لَهُ أَنْ يَعِيشَ مَعَهَا وَأَنْ يَمُوتَ مَعَهَا، مُنْذُ السَّاعَةِ الْأُولَى الَّتِي
تَوَلَّى فِيهَا فَيْصَلُ الْأَوَّلُ قِيَادَةَ جُيُوشِ الصَّحْرَاءِ الْعَرَبِيَّةِ، الثَّائِرَةِ عَلَى الدَّوْلَةِ
الْعُثْمَانِيَّةِ فِي سَنَةِ ١٩١٦. وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ وَقَفَ بِقُرْبِهِ نوري السَّعِيدُ!
تَعَوَّدُ بِي الذِّكْرِيَّاتُ إِلَى الْيَوْمِ الْأَوَّلِ الَّذِي عَرَفْتُ بِهِ نوري السَّعِيدُ فِي
لَيْلَةٍ عَاصِفَةٍ مِنْ شَهْرِ شُبَّاطِ عَامِ ١٩٢٠.

وَلَكِنِّي يَتَّبَعُنَا الْقَارِئُ بِطَرِيقَةٍ وَاضِحَةٍ، وَيُلِمُّ بِالْمُقَدَّمَاتِ السِّيَاسِيَّةِ
وَالْعَسْكَرِيَّةِ الَّتِي جَرَتْ قَبْلَ ذَلِكَ التَّارِيخِ، نَجِدُ أَنْفُسَنَا مُضْطَّرِّينَ لِلْعَوْدَةِ
إِلَى بَدَايَةِ انْسِحَابِ الْأَتْرَاكِ مِنَ الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ، أَيِّ مِنْ فِلَسْطِينَ وَلُبْنَانَ
وَالجَزِيرَةِ وَالْعِرَاقِ، وَدُخُولِ الْأَمِيرِ فَيْصَلِ لِدِمَشْقِ بِاسْمِ وَالِدِهِ الْمَلِكِ
حُسَيْنِ، وَذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ النُّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْعَامِ ١٩١٨.
وَنَحْنُ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ كُنَّا لَا نَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ الْوَضْعِيَّةِ الدَّوْلِيَّةِ الَّتِي كَانَ
الْحُلَفَاءُ قَدْ رَسَمُوهَا لَنَا.

كُنَّا قَدْ سَمِعْنَا مِنْ بَعِيدٍ بِشَيْءٍ اسْمُهُ مُعَاهَدَةُ سَايْكِس - بِيكُو، تُعَيِّنُ
حُدُودَ الْأَقْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي سَيَتَّفَاسُمُهَا الْإِنْكَلِيزُ وَالْفَرَنْسِيُّونَ بَعْدَ
انْتِصَارِهِمْ عَلَى أَلْمَانِيَا وَحُلْفَائِهَا وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مِنْ ذِكْرِ لِلْأَمِيرِ كَانِ
وَالرُّوسِ فِي ذَلِكَ الْحِينِ.

كُنَّا نَحْنُ فِي جَبَلِ لُبْنَانَ، نَعْتَقِدُ اعْتِقَادًا رَاسِخًا أَنَّنَا سَنَكُونُ مِنْ حِصَّةِ
الْفَرَنْسِيِّينَ، عِنْدَمَا يَجْرِي اقْتِسَامُ الْعَنَائِمِ.

مَعَ ذَلِكَ كُنَّا عَلَى اسْتِعْدَادٍ لَوْضِعِ رِقَابِنَا بَيْنَ أَيْدِي أَيِّ فَاتِحٍ يَفْتَحُ بِلَادَنَا.
وَلَمَّا دَخَلَتْ قَوَاتُ الشَّرِيفِ فَيَصِلُ دِمَشْقَ يَوْمَ ٢٧ تَشْرِينِ الْأَوَّلِ عَامَ
١٩١٨، وَعَلَى رَأْسِهَا نُورِي السَّعِيدِ، كُنْتُ أُقِيمُ فِي بَلَدَتِي زَحَلَةً، لِاجْتِنَاءِ
وَمُتَخَفِيًّا مِنْ مُلَاحَقَةِ الْأَتْرَاكِ لِي.

ثُمَّ جَاءَنَا رُسُلٌ مِنْ دِمَشْقَ يَقُولُونَ إِنَّ الْبِلَادَ سَتَكُونُ لِلْمَلِكِ حُسَيْنِ
وَلِأَبْنَائِهِ، وَإِنَّ الْمَلِكَ حُسَيْنًا سَيُضِيحُ مَلِكَ الْبُلْدَانِ الْعَرَبِيَّةِ، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا
لُبْنَانَ. وَيَوْمَ ذَلِكَ أَقَمْنَا فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ النَّصْرَانِيَّةِ بِكَامِلِهَا مَهْرَجَانًا
عَرَبِيًّا عَظِيمًا؛ وَأَظْهَرْنَا لِلْمَلِكِ حُسَيْنِ وَلِلشَّرِيفِ فَيَصِلُ مِنَ الْحَمَاسَةِ
مَا لَمْ يُظْهَرُهُ الْمُسْلِمُونَ وَنَمْنَا لَيْلَةً كَامِلَةً عَرَبًا هَاشِمِيِّينَ، مِنْ رَعَايَا
شَرِيفِ مَكَّةَ وَتَحْتَ إِمَارَةِ نَجْلِهِ فَيَصِلُ الْفَاتِحُ!

عِنْدَمَا انْتَصَرْتُ زَحَلَةً عَلَى الْإِمْبَرَاتُورِيَّةِ

وَلَكِنْ كَانَ لِذَلِكَ اللَّيْلِ مِنْ آخِرٍ...

وَفِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، دَخَلْتُ كَتِيبَةَ إِنْكَلِيزِيَّةً إِلَى زَحَلَةٍ آتِيَةً مِنْ دِمَشْقَ.
وَكَانَتْ أَوَّلَ قُوَّةٍ مِنَ الْحُلَفَاءِ تَدْخُلُ جَبَلَ لُبْنَانَ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ،
فَحَلَّتْ فِي أَعَالِي الْوَادِي الطَّلِيلِ، وَرَفَعَتِ الرَّايَةَ الْبَرِيطَانِيَّةَ عَلَى دَارِ
«الْحُكُومَةِ الْمَوْقُوتَةِ»، الَّتِي كَانَتْ قَدْ تَأَلَّفَتْ مِنْ بَعْضِ وُجُهَاءِ زَحَلَةٍ

لِتَحْكَمَ الْبَلَدَ فِي الْفَتْرَةِ الَّتِي مَرَّتْ بَيْنَ انْسِحَابِ الْأَتْرَاكِ وَبَيْنَ وُصُولِ
الْحُلَفَاءِ لِلْبِقَاعِ، وَدُخُولِهِمْ وَاوَادِي الْبِرْدُونِيِّ.

وَنَذْكُرُ جَيْدًا - أَنَا وَالْمُعَاصِرُونَ - لَمَّا رَفَعَ الْقَائِدُ الْإِنْكِلِيزِيُّ الرَّايَةَ
الْبَرِيطَانِيَّةَ بِمِهْرَجَانٍ كَبِيرٍ، بِحُضُورِ أَعْضَاءِ الْحُكُومَةِ الْمَوْقَّتَةِ؛ وَكَانَتْ
الْحُكُومَةُ الرَّحَلَاوِيَّةُ الْمَوْقَّتَةُ قَدْ عَيَّنَّتْنِي مُدِيرَ الْبُولِيسِ فِي الْبَلَدَةِ،
فَأَخَذْتُ أَرْبَعِينَ أَسِيرًا كَانُوا عِنْدَ الْأَتْرَاكِ فِي مُعْتَقَلِ رِيَاقِ، وَأَلْفَتْ
مِنْهُمْ قُوَّةَ بُولِيسٍ مُخْتَرَمَةٍ، كَانَتْ لَهَا الْفُضْلُ فِي صِيَانَةِ الْأَمْنِ فِي
رَحَلَةِ فِي فَتْرَةِ الْإِنْتِقَالِ.

لَمَّا رَفَعَ الْقَائِدُ الْإِنْكِلِيزِيُّ الْعَلَمَ الْبَرِيطَانِيَّ فَوْقَ السَّرَايِ الْمَوْقَّتَةِ
وَأَدَّى التَّحِيَّةَ، صَاحَ بِصَوْتٍ كَالرَّعْدِ: «حَيْثُ يَرْتَفِعُ هَذَا الْعَلَمُ يَبْقَى
طَيْلَةَ الدَّهْرِ وَلَا يَنْزِلُ».

وَلَكِنْ، وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي تَارِيخِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْبَرِيطَانِيَّةِ، وَقَدْ كَانَتْ
الشَّمْسُ فِي ذَلِكَ الْحِينِ لَا تَعْرُبُ عَنْ مُمْتَلِكَاتِهَا، ارْتَفَعَ عَلْمُهَا عَلَى
أَرْضِ كَسْبَتْهَا دُونَ أَنْ يُرْفَرَ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، إِذْ عَادَ الْقَائِدُ ذَاتَهُ
وَطَوَاهُ بِنَفْسِهِ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَوَضَعَهُ فِي حَقِيَّتِهِ!

ذَلِكَ أَنَّ الْفَرَنْسِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ وَصَلُوا لِبَيْرُوتَ فِي ذَلِكَ الْحِينِ،
طَالَبُوا بِالْحَقِّ الَّذِي أُعْطَتْهُمْ إِيَّاهُ مُعَاهَدَةُ سَايْكِس - بِيكُو، وَاعْتَرَفَ
لَهُمُ الْإِنْكِلِيزِيُّ بِهَذَا الْحَقِّ وَأَنْزَلُوا عَلْمَهُمْ عَنِ الْمِنْطَقَةِ التَّابِعَةِ لِلِإِحْتِلَالِ
الْفَرَنْسِيِّ.

هَكَذَا تَكُونُ رَحَلَةُ، الْمَدِينَةُ الضَّائِعَةُ فِي هَذَا الْكَوْنِ، الَّتِي لَمْ يَكُنْ
قَدْ سَمِعَ بِاسْمِهَا أَحَدٌ مِنْ مَلَائِينَ الْمُحَارِبِينَ، هِيَ الَّتِي بَدَأَتْ فِي
هَذَا الشَّرْقِ بِإِنْزَالِ الْعَلَمِ الْإِنْكِلِيزِيِّ... وَأَخَذَ الْعَلَمُ مِنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ
يَنْزِلُ كُلَّ يَوْمٍ عَنْ أَرْضِ مَنْ أَرْضِي الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْعُظْمَى، حَتَّى أَصْبَحْنَا

الآن في هذا الشرق الأوسط تَتَفَقَّدُهُ فَلَا نَجِدُهُ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ!
 وَهَذَا لَا بُدَّ مِنَ الْقَوْلِ إِنَّ مُعَاهَدَةَ سَايِكْس - بِيكُو كَانَتْ تُقَسِّمُ سُورِيَا
 وَلُبْنَانَ إِلَى مَنطَقَتَيْنِ: المِنطَقَةَ الشَّرْقِيَّةَ يَحْتَلُّهَا الشَّرِيفُ فَيَصِلُ وَهِيَ
 سُورِيَا، وَالمِنطَقَةَ الغَرْبِيَّةَ يَحْتَلُّهَا الفَرَنْسِيُّونَ وَيَحْكُمُونَهَا، وَهِيَ مُؤَلَّفَةٌ
 مِنْ جَبَلِ لُبْنَانَ، وَمِنَ الأَرَاضِي الَّتِي ضَمَّتْ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ، أَيِ الجُنُوبِ
 وَطَرَابُلُسَ وَعَكَارَ وَالأَقْضِيَةَ الأَرْبَعَةَ.

فَيَصِلُ يَحْتَلُّ الأَقْضِيَةَ الأَرْبَعَةَ

وَلَمَّا دَخَلَ فَيَصِلُ دِمَشْقَ، أَوْفَدَ حَالًا، بِنَاءً عَلَى رَأْيِ مُرَافِقِهِ نُورِي
 السَّعِيدِ، جَيْشًا شَرِيفِيًّا بِقِيَادَةِ الرُّكَّابِيِّ بَاشَا وَاحْتَلَّ الأَقْضِيَةَ الأَرْبَعَةَ:
 حَاصِبِيًّا وَرَاشِيًّا وَالبِقَاعَ وَبَعْلَبَكَّ، مُخَالِفًا هَكَذَا مَنطُوقَ مُعَاهَدَةِ سَايِكْس
 - بِيكُو.

وَكَانَتْ هَذِهِ الأَقْضِيَةُ حَسَبَ مَنطُوقِ المُعَاهَدَةِ جُزْءًا مِنْ مَنطَقَةِ الفَرَنْسِيِّينَ.
 وَلَكِنَّ الشَّرِيفَ فَيَصَلًا، وَدَوَّمَا بِرَأْيِ نُورِي السَّعِيدِ - مَا اتَّضَحَ بَعْدَ
 ذَلِكَ مِنْ مُذْكَرَاتِ الرُّكَّابِيِّ بَاشَا وَشُكْرِيِّ الأَيُّوبِيِّ بَاشَا - انْتَهَزَ تَأْخُرَ
 الفَرَنْسِيِّينَ مَعَ الجَيْشِ الإِنْكِلِيزِيِّ فِي جَنُوبِ لُبْنَانَ بِضَعَةَ أَيَّامٍ، فَاحْتَلَّ
 الأَقْضِيَةَ الأَرْبَعَةَ وَاضَعَا الفَرَنْسِيِّينَ - وَطَبَعًا بِمَعْرِفَةِ الإِنْكِلِيزِ - أَمَامَ
 الأَمْرِ الوَاقِعِ.

فَيَصِلُ وَصُورَةَ المَسِيحِ

وَفَعَلَ يَوْمَئِذٍ فَيَصِلُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ: فَبَعْدَ يَوْمَيْنِ فَقَطُ مِنْ اِحْتِلَالِهِ
 الأَقْضِيَةَ الأَرْبَعَةَ، جَاءَ بِحَاشِيَةٍ كَبِيرَةٍ - وَإِلَى جَانِبِهِ مُرَافِقُهُ وَرَفِيقُهُ

الدائم نوري السعيد - يزور الأفضية الأربعة وَيُنَبِّتُ وَضَعَ يَدِهِ عَلَيْهَا!
وكانت أول محطة نزلها هي مُعلَّقة زحلة.

ومثلنا يومئذ بين يدي الشريف، فأدهشنا سُكوتُه ومهابتُه، وأخذنا
بقامته المديدة وسمرته الساحرة وعينيهِ السوداوين العميقتين ولحيته
الحالكة السوداء، فترأى لنا بثوبه الأبيض الفُضفاض، وعباءته الحمراء،
وهو جالس في صدر قاعة الاستقبال، في منزل الوجه الماروني
الكبير بمُعلَّقة زحلة، يوسف بك نمور، ترأى لنا الشريف وكأنه
صورة عن المسيح، إنما صورة سماء بدلًا من أن تكون شقراء، كما
يرسمون السيد المسيح في الصور المقدسة!

إخوان، لا مسلم ولا نصراني...

وحرص فيصل في زيارته هذه للأفضية الأربعة، التي يكثر فيها
النصارى، على أن يحيط نفسه بعدد كبير من معاونيه من الموارنة
والكاثوليك، ومنهم الشيخ فريد الخازن وكان قد استنفرهم من مصر
وعغيرها قبل أن يخوض حرب الصحراء، وجعلهم حاشية قوية تحيط
به، لهم ما لغيرهم من كبار المرافقين المسلمين.

حرص وهو في الأفضية الأربعة على النزول ضيفًا على بيوتات كبار
النصارى، مظهرًا هكذا تجردًا طائفيًا كبيرًا جدًا كان له تأثير عظيم
على أهالي جبل لبنان.

وكان من الواجب على الحكام الذين جاؤوا من بعده في سوريا ولبنان،
أن يعتبروا به، وبالأخوة التي جعلها رائد النصارى والمسلمين معًا، وأن
يتخذوا من مسلكه الوطني قاعدة لحياتهم السياسية، ولعدم التفرقة
الطائفية من أية جهة كانت، خاصة في بيروت، حيث كانت الدكاكين

الطائفية - وما تزال - المصيبة الكبرى، وأصل المشاكل والتناحر!
وأخذت الأيام ثم الأسابيع تمرُّ، والمفاوضات قائمة في باريس ومع
فيصل، لكي تجلّو الجيوش العربية عن القضية الأربعة، وذلك بانتظار
ما قرره مؤتمر الصلح. فلنا أخذت الأيام والأسابيع تمرُّ، والشريف يزداد
قوةً ونشاطاً في سوريا ويزداد تمسكاً بالقضية الأربعة، والفرنسيون
يزدادون مطالبةً بها ويحجمون عن احتلالها بالقوة خوفاً من المشاكل
التي قد تُسفر عن ذلك، ولكنهم كانوا يحشدون في زحلة وجوارها
فرقاً عديدةً تنتظر...

كانت تنتظر الأمر بالهجوم، يقودها أحد كبار قادة التصريح الجنرال
دي لاموت، الذي اتخذ زحلة مقراً له، وعيّن على رأس مكتبه الثاني
الكومندان أربابوس المشهور بحيلته ونباهته، وقد عاد إلينا بعد
عشرين سنة من ذلك، في بداية الحرب الكبرى الثانية، وعيّن الجنرال
ويغاند لبضعة أسابيع حاكماً عاماً على الجمهورية اللبنانية!

كانت تربطني بالكومندان أربابوس، لما كان في زحلة رئيساً للمكتب
الثاني سنة ١٩٢٠، رابطة الصداقة من جهة، ثم رابطة التعاون السياسي
السليم المعقول، الذي كانت قاعدته الأساسية التفاهم مع فيصل بآية
طريقة كانت، وبذل كل جهد لتجنب الحرب معه، الأمر الذي لم
يكن الجنرال دي لاموت « الحربجي » العسكري يقبله! إنه رابط مع
عساكره بزحلة ليحارب، لا ليصالح ويتعاون، وكان الكومندان أربابوس
يرسل للقائد العام وللمفوضية السامية في بيروت تقاريره - التي
كنا نضعها معاً - مثبتاً بأدلة كثيرة وبراهين حاسمة، ضرورة التفاهم
مع فيصل سلمياً، إذ إن الحرب معه، وهو في ذلك الحين معبود
العرب، والمسمى بالمنقذ والبطل، يجعل العرب في كل مكان، حتى
في الجزائر ومراكش وتونس، يتألبون على الفرنسيين ويشورون عليهم!

يَنْتَظِرُونَ رَسُولًا مِنْ بَيْنِ الْعَوَاصِفِ وَالثُّلُوجِ

كَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ الْحَالِكَةُ الْعَاصِفَةُ فِي شُبَاطَ ١٩٢٠، الَّتِي ثَارَتْ فِيهَا الْعَوَامِلُ الطَّبِيعِيَّةُ نَائِرَةً هَوَاجًا، تَتَّفِقُ مَعَ رُوحِ الْحَرْبِ الَّتِي كَانَتْ تُسَيِّرُ عَلَى ذَاكَ الْجِنِرَالِ الْفَرَنْسِيِّ وَأَرْكَانِ حَرْبِهِ، فِي مَقَرِّ الْقِيَادَةِ الْعَامِّ، بِفُنْدُقِ قَادِرِي الْمَعْرُوفِ فِي رَحْلَةٍ.

كَانُوا يَنْتَظِرُونَ فِيهَا قُدُومَ رَسُولٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ذَا شَأْنٍ وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ رِسَالَتُهُ ذَاتَ أَهْمِيَّةٍ كُبْرَى...

وَكَانَتْ السَّاعَةُ الْوَاحِدَةَ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ، وَكَانَتْ الْعَاصِفَةُ الْمُمَطَّرَةُ انْقَلَبَتْ إِلَى عَاصِفَةٍ ثُلْجِيَّةٍ، اشْتَدَّ فِيهَا الْبَرْدُ لِدَرَجَةِ الصَّقِيعِ لَمَّا جَاءَ «خَزْمَتَجِي» الْكُومَنْدَانَ أَرَلَابُوسَ رَيْسُ الْمَكْتَبِ الثَّانِي يُوَقِّظُنِي مِنْ

نُومِي، وَيَطْلُبُ مِنِّي الْإِلْتِحَاقَ حَالًا بِسَيِّدِهِ!

وَطَبْعًا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ شَيْئًا مِمَّا كَانَ مُرْتَقِبًا، وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ أَيُّهُ ظَاهِرَةً تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ أَمْرًا هَامًّا سَيَكُونُ فِي ذَلِكَ اللَّيْلِ، فَالْقَائِدُ الْجِنِرَالُ دِي لَامُوتَ وَضَبَّاطُهُ كَانُوا بَعْدَ الْعِشَاءِ فِي مَقَرِّهِمُ الْعَامِّ قَدْ ذَهَبُوا لِأَسْرَتِهِمْ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ غَيْرُ الْكُومَنْدَانَ أَرَلَابُوسَ سَاهِرًا، وَأَنَا بِقُرْبِهِ حَتَّى السَّاعَةِ الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ، عِنْدَمَا سَمَحَ لِي بِالذَّهَابِ إِلَى بَيْتِي قَائِلًا:

«كُنْتُ بِحَاجَةٍ إِلَيْكَ لِأَمْرٍ هَامٍّ، وَلَكِنَّ الْوَقْتَ قَدْ فَاتَ!».

لَمْ أَفْهَمْ شَيْئًا، وَبِطَبِيعَةِ الْحَالِ لَمْ أَسْمَحْ لِنَفْسِي بِالِاسْتِفْسَارِ، إِنَّمَا تَدَكَّرْتُ كَلَامَهُ لَمَّا اسْتَدْعَانِي بَعْدَ ذَلِكَ السَّاعَةِ الْوَاحِدَةَ وَالنُّصْفِ وَهِيَ السَّاعَةُ الَّتِي عَرَفَ فِيهَا أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ يَنْتَظِرُهُ مَعَ الْجِنِرَالِ دِي لَامُوتَ وَأَرْكَانِ حَرْبِهِ قَدْ تَأَخَّرَ عَنِ الْقُدُومِ، وَلَكِنَّهُ لَنْ يَتَخَلَّفَ عَنِ

الْمَوْعِدِ!

لَقَدْ وَصَلَ الرَّجُلُ عِنْدِيذٍ إِلَى مُعَلَّقَةٍ زَحَلَةٍ، حَيْثُ التَّجَأَ إِلَى بَيْتِ
القَائِمِّمَقَامِ، حَاكِمِ البِقَاعِ الشَّرِيفِيِّ، يَعْتَنِي بِنَفْسِهِ قُرْبَ نَارٍ هَائِجَةٍ، بَعْدَ
أَنْ كَادَتِ العَاصِفَةُ التَّلْجِيَّةُ تَذْهَبُ بِهِ وَتَقْتُلُهُ بَرْدًا، وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ
إِلَى المَوْعِدِ المَضْرُوبِ مَعَ الفَرَنْسِيِّينَ بِزَحَلَةٍ!

جِنْرَالُ فِي السَّادِسَةِ والعِشْرِينَ!

إِنَّهُ مَوْعِدٌ خَفِيٌّ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ سِرَّهُ غَيْرُ الجِنْرَالِ دِي لاموت والكولونيل
جيزار رَئِيسِ أَرْكَانِ حَرْبِهِ والكومندان أَرلابوس.

وَفَعَلَتِ النَّارُ فِي بَيْتِ القَائِمِّمَقَامِ فَعَلَّتْهَا، وَاسْتَعَادَ الرَّسُولُ حَالَتَهُ
الطَّبِيعِيَّةَ، يُسَاعِدُهُ بِذَلِكَ شَبَابُهُ الغَضُّ وَنَشَاطُهُ العَسْكَرِيُّ الصَّارِمِ. كَانَ
ذَلِكَ الرَّسُولُ الَّذِي يَنْتَظِرُهُ قَائِدُ الجَيْشِ الفَرَنْسِيِّ وَضَبَّاطُهُ هُوَ الجِنْرَالُ
نوري السَّعِيدُ أَصْغَرُ الجِنْرَالِيَّةِ سِنًّا فِي العَالَمِ!

تَرَكَ دِمَشْقَ سِرًّا عِنْدَ عَتَمَةِ المَسَاءِ، بِالرَّغْمِ مِنَ الأمطارِ الغَزِيرَةِ الَّتِي
كَانَتْ تَهْطِلُ، وَلَكِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ تِلْكَ الرُّحْلَةِ.

وَأَخَذَ يَطْوِي الوُدِيَانَ وَالبِطَاحَ مَعَ الضَّابِطِينَ الصَّغِيرِينَ مُرَافِقِيهِ،
يُحَارِبُ العَوَاصِفَ وَالعَوَاصِفُ تُحَارِبُهُ - حَتَّى وَصَلَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ
المُتَأَخَّرَةِ إِلَى زَحَلَةٍ، وَكَانَتِ القِيَادَةُ الفَرَنْسِيَّةُ تَنْتَظِرُ وَوُصُولَهُ قَبْلَ
السَّاعَةِ العَاشِرَةِ.

وَكَانَ كُلُّ شَيْءٍ فِي لوكَنْدَةَ قَادِرِي تَحْتَ الحِرَاسَةِ الصَّارِمَةِ، وَكَانَ بَعْضُ
الجُنُودِ حَوْلَ المُنْدُقِ يَرْتَجِفُونَ بَرْدًا وَلَكِنَّهُمْ يَسْهَرُونَ عَلَى مَنَعِ أَيِّ كَانَ
مِنَ الاقْتِرَابِ.

بَعْدَ دَقَائِقٍ قَلِيلَةٍ مِنْ وَصُولِي لِلْمُنْدُقِ شَاهَدْتُ مِنْ وَرَاءِ النَّافِذَةِ مَعَ

سَوَادِ اللَّيْلِ، نوري السَّعِيدِ يَتَرَجَّلُ بِقُوَّةٍ مِنَ السَّيَّارَةِ وَيَضَعُدُ السُّلْمَ
بِسُرْعَةٍ الشَّبَابِ وَيُصَافِحُ الْجِنْرَالَ دي لاموت وَضَبَّاطَهُ الَّذِينَ خَفُّوا إِلَى
اسْتِقْبَالِهِ عَلَى أَعْلَى الدَّرَجِ غَيْرَ عَابِئِينَ بِالثُّلُوجِ الَّتِي كَانَتْ تَتَسَاقَطُ،
وَلَا بِالظَّلَامِ الْحَالِكِ الَّذِي سَادَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَكَانَتْ الْأَنْوَارُ طَبَعًا بِأَجْمَعِهَا
مُطْفَأَةً...

إِذْ إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ كَانَ يَجِبُ أَنْ يَجْرِيَ بِالسَّرِّ وَالْخَفَاءِ الْكَامِلَيْنِ، وَكَانَ أَوَّلُ
شَيْءٍ قَالَهُ لِي الْكُومَنْدَانِ أَرَلَابُوسُ أَنْ أَضْبَطَ لِسَانِي وَأَنْسَى كُلَّ مَا جَرَى
وَكُلَّ مَا سَيَجْرِي فِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ!

المترجمُ الَّذِي استدعوه كانَ أنا!

بَعْدَ بَضْعِ دَقَائِقٍ مِنْ دُخُولِ نوري السَّعِيدِ إِلَى مَكْتَبِ دي لاموت
اسْتَدْعَانِي الْكُومَنْدَانِ أَرَلَابُوسُ لِمُرَافَقَتِهِ إِلَى دِيوانِ الْجِنْرَالِ، وَكَانَ
الضَّبَّاطُ الْفَرَنْسِيُّونَ يُحِيطُونَ بِنوري السَّعِيدِ، وَدَلَائِلُ الدَّهْشَةِ ظَاهِرَةٌ
عَلَى وُجُوهِهِمْ، وَكَأَنَّهُمْ يَتَسَاءَلُونَ كَيْفَ أَنَّ الشَّرِيفَ فَيَصَلَّا الرَّصِينَ
الْحَكِيمَ يُسَلِّمُ أُمُورَهُ الْهَامَّةَ وَمُهَمَّاتِهِ الْكُبْرَى إِلَى هَذَا الضَّبَّاطِ الصَّغِيرِ
السَّنِّ الْيَافِعِ.

وَكَانَتْ مُهْمَتِي التَّرْجَمَةَ.

وَمَعَ أَنَّ نوري السَّعِيدَ كَانَ مُلِمًّا بِالْإِفْرَنْسِيَّةِ نَوْعًا مَا، وَمَعَ أَنَّ الضَّبَّاطِينَ
مُرَافِقِيهِ كَانَا يَعْرِفَانِهَا تَمَامًا، وَلَكِنَّهُ كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ
هُنَاكَ مُتَرْجِمٌ يَحْمِلُ ثِقَةَ الْمَكْتَبِ الثَّانِي الْفَرَنْسِيِّ وَلَا يَتَلَاعَبُ بِالْأَلْفَاظِ
وَالْمَعَانِي، فِي اجْتِمَاعِ هَامٍّ كَالْاجْتِمَاعِ الَّذِي يَقُومُ. كَانَتْ هَذِهِ الْمُهْمَةُ
مُنْتَهَى الْمُهَمَّاتِ بَيْنَ الْفَرَنْسِيِّينَ وَالشَّرِيفِ فَيَصَلُّ وَكَانَ فَصَلَّ الْخِطَابِ
وَمَفْرَقِ الطَّرْقِ.

كَانَ الْفَرَنْسِيُّونَ هُمُ الَّذِينَ طَلَبُوا مِنَ الشَّرِيفِ إِرْسَالَ رَسُولٍ يُفَاوِضُهُمْ وَيَكُونُ مَقْوُضًا تَقْوِيضًا مُطْلَقًا لِلاتِّفَاقِ مَعَهُمْ إِذَا أَمَكْنَ، وَلِتَجَنُّبِ الْحَرْبِ وَالْحُوُولِ دُونَ اِحْتِلَالِ الْأَقْضِيَةِ الْأَرْبَعَةِ بِالْقُوَّةِ، وَكَانَ الْفَرَنْسِيُّونَ قَدْ حَشَدُوا جُيُوشَهُمْ فِي زَحْلَةٍ وَعَلَى حُدُودِهَا.

رَجُلٌ سَيْفٍ وَسِيَاسَةٍ وَبَهْلَوَانِيَّاتٍ!

بَعْدَ أَنْ بَدَأَتِ الْمُنَاقَشَةُ زَالَ اسْتِعْرَابُ الْجَمِيعِ مِمَّا كُنَّا نَسَمِّيهِ اسْتِسْلَامَ الشَّرِيفِ فَيَصِلُ إِلَى نُورِي السَّعِيدِ - إِذْ إِنَّ هَذَا الْأَخِيرَ أَثْبَتَ فِي مُنَاقَشَتِهِ وَمُبَاحَثَاتِهِ دَهَاءً سِيَاسِيًّا مُمْتَازًا وَمَقْدِرَةً بَلِيغَةً فِي حُجَجِهِ وَنَظَرِيَّاتِهِ: تَذَرَعُ الْجِنْرَالُ دِي لَامُوتِ بِمُعَاهَدَةِ سَايْكِس - بِيكُو الَّتِي نَصَّتْ عَلَى ضَمِّ الْأَقْضِيَةِ الْأَرْبَعَةِ إِلَى الْمِنْطَقَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْفَرَنْسِيَّةِ، فَقَالَ لَهُ نُورِي السَّعِيدُ: «وَلَكِنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ عَرَبِيَّةٌ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ سُورِيَا الَّتِي يَحْكُمُهَا الشَّرِيفُ فَيَصِلُ بِنُ الْحُسَيْنِ، فَهَلْ عَلَى مُعَاهَدَةِ سَايْكِس - بِيكُو تَوْقِيعُ الشَّرِيفِ أَوْ تَوْقِيعُ جَلَالَةِ وَالِدِهِ، الْمَلِكِ حُسَيْنِ كِي نَعْمَلَ بِهَا؟ إِنَّ مُعَاهَدَةَ سَايْكِس - بِيكُو بِنَظَرِنَا - هِيَ اتِّفَاقُ جَانِبَيْنِ مُعْتَصِبَيْنِ لِبَلَدٍ لَا يَخْصُهُمَا، لِذَلِكَ نَحْنُ لَا نَعْتَرِفُ بِهَا!».

وَلَمَّا بَدَأَ الْجِنْرَالُ دِي لَامُوتِ تَهْدِيدَهُ مِنْ طَرَفٍ خَفِيِّ قَالَ نُورِي السَّعِيدُ:

«إِذَا كُنَّا قَدْ دَخَلْنَا فِي طَوْرِ التَّهْدِيدِ فَإِنِّي أُفْضِلُ الْأَنْسِحَابَ...».

وَلَمْ تَكُنِ التَّعْلِيمَاتُ الْوَارِدَةُ مِنْ بَيْرُوتَ تَسْمَحُ لِلْجِنْرَالِ بِقَطْعِ الْمُفَاوِضَاتِ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ، لِذَلِكَ عَادَ دِي لَامُوتِ يَقُولُ:

«نَحْنُ هُنَا لِنَتَّفَاهَمَ لَا لِنَتَّخِصَمَ، فَعَلَى أَيِّ طَرِيقٍ يُرِيدُ فَيَصِلُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَنَا؟».

قال نوري السعيد: «على طريق المناداة به ملكاً على سوريا ولبنان مع الاحتفاظ بكل امتيازات جبل لبنان وحكمه الذاتي، والمحافظة على المصالح الفرنسية في البلدين».

وقال أربابوس:

«نحن مستعدون أن نعطى فيصلاً ما يريده، ولكن هل هو مستعد أن يعترف بنفوذنا العسكري على البلدين؟» .

قال نوري السعيد: «أوصاني سيّدنا لما ودّعته قائلاً: «إذا ألقوا عليك مثل هذا السؤال فاعتصم بالخرس وتظاهر بالصم». وهكذا أفعل الآن. ولكنني أريد أن أقول لكم إن هذا الأمر ليس بيد فيصل ولا بيد الفرنسيين، بل هو بالأحرى بيد الأهالي وبيد مؤتمر الصلح، الذي سنشترك به بجانب من الحلفاء».

وقال الجنرال دي لاموت: «ولكن يا حضرة الجنرال نوري السعيد، ما هو التفويض الذي تحمله على التمام؟».

قال نوري السعيد: «هو أن أقول لكم إنكم إذا احتلتم القضية الأربعة، كما أنتم مستعدون أن تفعلوا، فإنكم تخسرون النفوذ الذي تطلبونه بسوريا. إذ إن سوريا تعتبر نفسها عندئذ في حالة حرب معكم...».

فَتْحُ صَنَادِيقِ الذَّهَبِ فِي اللَّحْظَةِ الْأَخِيرَةِ

وهنا لم يبق مجالاً لمناقشة عقيمة لا فائدة منها بهذا الصدد، لذلك رأى الجنرال دي لاموت أن يدخل حالاً في صلب الموضوع، لتطبيق خطة أشار بها عليه بعض الساسة اللبنانيين البيروتيين، ومنهم إميل إده وألبير قشوع وخير الدين الأحدب وبعض زعماء الساحل المسلمين الموالين للفرنسيين، وهو الالتجاء للذهب، عندما لا يبقى باليد حيلة!

قال الجنرال دي لاموت:

«نَحْنُ نَعْرِفُ أَنَّكَ تَتَمَتَّعُ بِنُفُوذِ قَوِيٍّ كَبِيرٍ عَلَى فَيْصَلِ سَيِّدِكَ، فَدَعْنَا تَتَفَاهَمَ مَعَكَ وَبَعْدَ ذَلِكَ كُلِّ شَيْءٍ يَهُونُ!». وَظَهَرَتْ دَلَائِلُ الدَّهْشَةِ عَلَى مَلَامِحِ نُورِي السَّعِيدِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ تَمَامًا مَا هُنَالِكَ، فَأَجَابَ:

«أَنَا جِئْتُ إِلَى هُنَا بِأَمْرِ سَيِّدِنَا لِاتَّفَاهَمَ مَعَكُمْ، فَلِمَاذَا لَا أَفْعَلُ؟!».

وَهُنَا أَشَارَ عَلَى الْجِنْرَالِ دِي لَامُوتِ وَعَلَى الضُّبَّاطِ الْبَاقِينَ بِالْخُرُوجِ، وَبَقِيَ مَعَ نُورِي السَّعِيدِ وَالْكُومَنْدَانَ أَرْلَابُوسَ لِوَحْدِهِمْ. وَحَاوَلَ أَنْ يَفْهَمَ عَلَى نُورِي السَّعِيدِ، وَأَنْ يَفْهَمَ نُورِي السَّعِيدِ عَلَيْهِ بِبَعْضِ الْإِفْرَنْسِيَّةِ الَّتِي يَعْرِفُهَا، فَلَمْ يَسْتَطِيعَا التَّفَاهَمَ فَاسْتَدْعَانِي أَرْلَابُوسَ مِنْ جَدِيدٍ لِاتَّرْجِمَ، وَقَالَ لِنُورِي السَّعِيدِ بِطَرِيقَةٍ فُجَائِيَّةٍ وَدُونَ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ مُقَدِّمَاتٍ: «هَلْ مِئَةُ أَلْفِ لِيرَةٍ إِفْرَنْسِيَّةٍ ذَهَبِيَّةٍ تَكْفِيكَ؟ إِنْ أَرَدْتَهَا فَسَتَكُونُ بَعْدَ دَقِيقَةٍ فِي صُنْدُوقِ سَيَّارَتِكَ».

وَظَهَرَتْ عَلَى وَجْهِ نُورِي السَّعِيدِ دَلَائِلُ الْارْتِبَاكِ، وَتَابَعَ أَرْلَابُوسَ قَائِلًا:

«هُنَاكَ نِصْفُ مِليونِ لِيرَةٍ إِفْرَنْسِيَّةٍ ذَهَبِيَّةٍ تَنْتَظِرُ إِشَارَةً مِنْكَ لِإِرْسَالِهَا لِلْأَمِيرِ بِدِمَشْقٍ، وَهُنَاكَ غَيْرُهَا وَغَيْرُهَا مُخَصَّصَةٌ لَهُ وَلِلْحَاشِيَةِ الشَّرِيفِيَّةِ!». هُنَا أَخَذَ الْارْتِبَاكُ يَنْفِشُ رُؤْيِدًا رُؤْيِدًا عَنْ وَجْهِ نُورِي السَّعِيدِ، وَشَاهَدْتُ عَيْنَيْهِ تَبْرُقَانِ مِنْ جَدِيدٍ بِحُبُورٍ، فَتَصَوَّرْتُ أَنَا وَالْجِنْرَالُ وَأَرْلَابُوسُ أَنَّهُ وَقَعَ بِالْفُحِّ وَقَبِلَ الصَّفْقَةَ.

وَطَلَبَ نُورِي السَّعِيدِ فِنْجَانًا مِنَ الْقَهْوَةِ وَجَلَسَ يُفَكِّرُ ثُمَّ قَالَ:

«غَدًا فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ، إِذَا كُنْتُ عِنْدَكُمْ هُنَا يَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ تَمَّ كَمَا تُرِيدُونَ، وَإِذَا لَمْ أَحْضَرْ فَأَعْمَلُوا مَا تَشَاوُونَ».

وَلَمْ يَزِدْ كَلِمَةً بِالرَّغْمِ مِنَ الْإِحْرَاحِ الْجِنْرَالِ دِي لَامُوتِ وَالْكُومَنْدَانَ أَرْلَابُوسَ، وَلَمْ يَقْبَلْ أَنْ يُعْطِيَ أَيَّ وَعْدٍ، وَقَالَ فَقَطُّ:

«لا تَضَعُوا شَيْئًا فِي صُنْدُوقِ السَّيَّارَةِ!».
وَفَجْأَةً ارْتَدَى مِعْطَفَ الْفَرَوِ الْجَمِيلِ وَوَدَّعَ بِطَرِيقَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ، وَهُوَ
يَقُولُ:

«قَدْ أَرْجِعُ إِلَيْكُمْ عَدَا فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ لِهُنَا!».
وَلَكِنْ مَرَّ الْعَدُوَّ وَمَرَّ بَعْدَ الْعَدُوِّ، وَاحْتَلَّ الْفَرَنْسِيُّونَ الْأَفْضِيَّةَ الْأَرْبَعَةَ
وَحَارَبُوا الشَّرِيفِيِّينَ بَعْدَ ذَلِكَ بِمِيسْلُونَ، حَيْثُ حَضَرَتْ الْمَعْرَكَةُ
بِنَفْسِي، وَتَرَكَ قَيْصَلُ دِمَشْقَ وَأَنْهَارَ عَرْشُهُ فِيهَا، وَنُورِي السَّعِيدُ لَمْ
يَرْجِعْ لِرِجْلِهِ.

لَمْ يَرْجِعْ لِلْمَوْعِدِ الَّذِي كَانَ قَدْ صَرَبَهُ لِلْجِنَرَالِ دِي لَامُوتِ وَلِلْكَوْمَنْدَانِ
أَرْلَابُوسِ...

